

الى الادب لفضل
المستاذ عبد الفتاح داود
١١٠٨٩
ع. اوفى الجليل
نور الله

اشجاء

فؤاد قنديل

سهام سليمان

٣.

كنت عائدة في احد ايام شهر نوفمبر ١٩٦٥ الى منزلنا
بحى الاربعين بمدينة السويس فاذا امى تتلقانى عند
الباب .

- تفضلى بخلع هذه الملابس .
- ماذا حدث يا امى ؟
- لم يحدث شيء فقط لم تعد هناك مدارس .
- لم ييلفونا بذلك فى المدرسة .
- انا الان ابلغك لن تذهبى الى المدرسة
بعد اليوم .

- كيف هذا ؟ لا افهم .
 - ولا كلمة .
- وبكيت فصفتنى امى بيد دهنية ثقيلة ، تعودنا على
الخوف منها .. أصدرت قرارها الذى لا يقدر احد على
رده .

وهكذا قبعيت فى البيت وأنا فى هذه السن المبكرة ،
فتاة لا ينقصنى الجمال ولكن سينقصنى العلم ، ~~وهو الذى~~
~~يقدر~~ .. كنت اود لو تتحقق آمالى التى رسمتها منذ
عدة ايام على ورقة بيضاء

انا الآن فى الثالثة الاعدادية وبعد ثلاث سنوات ادخل الجامعة ، والبس كما تلبس فتيات الجامعة ، واتزين كما يتزين ، واحمل الكتب بين احضانى كما يحملنها ، سيكون لى نصيب فى الكعب العالى واللبس القصير .

ويكون لى بالطبع فى الدار مكتب مستقل لا يقفز عليه هشام ولا يفتح ادراجة امجد ... وتكون لى اقلام كثيرة وكشاكيل وادوات هندسية خاصة ، لانى سالتحق بكلية الهندسة ... لا ... لا يروقتى ان اكون مهندسة لان عمل المهندسة تعوزه الجاذبية ، فعليها صعود السقالات ونزول الحفر .

اذن فدكتورة ... نعم فكتورة ذكية وجيلة .. هم يقولون عنى ذلك ، انا لست مغرورة ، لكنهم يقولون دوما ان سهام ذكية وجيلة، ساكون فكتورة ... الايام تمر بسرعة ، لكن امى قالت :

— ولا كلمة ... انتهينا تماما من موضوع المدارس.

وانا اعرف امى ، اذا اصدرت حكما فلا مناص من تنفيذه ، مهما بذلت الجهود او ابتكرت الحيل لاقناعها بالتخلى عنه .

لست الاولى على كل حال ... فقد وقفت امى نفس الموقف مع اختى الكبرى سوسن ... ولنفس السبب الموهوم الذى تتخلله ... وحتى لو كان هذا الموقف صحيحا

بالنسبة لسوسن فهو ليس صحيحا بالنسبة لى .. انا لم
اتجاوز الرابعة عشرة من عمرى ، فهل يعقل أن تكون لى
علاقة بابن الجيران ، انا لا ارتبط بعلاقة مع احد ولا حتى
بينت الجيران ... لا احس بالراحة مع احد ... راحتى
القصى حين اكون وحدى ... انا وحدى حتى ولو تحت
السرير ، كى لا يسمعنى احد اذا حلقت أو تكلمت أو تقلبت
أو تنفست . احس ان كل ما يخضنى هو أسرار شخصية
حتى لو كان طعامى .

المشكلة مع أمى اننى ازاء رفضها لا أستطيع ان أفعل
شيئا ولا أجرؤ على البكاء ، لان بكائى معناه اننى اعترض،
وانا حاشا لله لا اعترض ، وهل هناك من يعترض على أى
موقف تتخذه أمى .. حتى أخى جابر الذى يتمتع بعناية
الجميع واهتمامهم ، واهتمام أمى بالذات واحترامها
لا يستطيع ان يعترض ، واذا لم يعجبه رأيها ، تلمل فى
جلسته وتمتم بكلمات لا تسمعها ، وخرج ليخلص نفسه من
الضيق ويفرج عن نفسه الغاضبة وروحه الثائرة .

آه منك يا أمى ... لماذا وضعت نهائية لكل
ما بنيت ؟ لماذا قوضته وكنت اعول عليه ؟ هل اتحول من
دكتورة الى « ست بيت » بلا معنى داخل الجدران ، هل
اتحول من سيدة مشهورة لها قيمتها فى المجتمع إلى فتاة
نكرة بلا ذكر فى ثوان وبكلمة واحدة .

سأقبع فى المنزل كالكرسى أو كالمنضدة ... اصبح
فى ساعة واحدة مكنسة يكتسون بها كل شىء ، وينظفون
بها الاركان ، ويرفعونها الى السقف ليهدموا بها بيت
العنكبوت .. ويقتلوا بها الفأر ، ويضربوا بها الاولاد ..
اهذا هو مستقبلى !

كنت اهتم فى الصباح بكى ملابسى وترتيب كنى ،
وتسوية ضفائرى وتجهيز فطورى ثم اذهب الى المدرسة
كالمعروس فى ليلة الزفاف ، وحين اعود ظهرا القى غداى
معدا ، وحجرتى مرتبة والارض مكنوسة وممسوحة نأنام
حتى بعد العصر ، ثم انهض للذاكرة وتقدم امى بنفسها
لى كوبا من الشاى ... كل هذا كانت امى تقوم به وحدها ،
واذا فكر احدها فى عمل شىء تقول فى حدة صارخة :
— غوروا انتو ذاكروا ... انا سأقوم بكل شىء .

كلامها كطل ، وحروفها أحجار !!! انها صاحبة الكلمات
القاتلة تلقى عليك الكلمة من كلماتها فكانها حجارة
من سجيل ، تجعل المستهدف لها كمصف مأكول .. تجعله
يتلاشى .. تجعله ينسى ما جاء من أجله ... ينسى اسمه
ورسمه وعنوانه .

سأتحول انا الدكتور — وكان من المؤكد ان اكون
دكتورة باذن الله — الى البيت والخدمة ، الى العمل الشاق ،

الى المرور على الاسواق ، الى حمل الخضر والفاكهة ، الى
المسح والكنس والترتيب ، وغسل الاواني والاطباق .

— فزى يا بنت هاتى نوافالجين وعند عودتك مرى على
عمك مدبولى فاشترى لبان ومرى على خالتك سنية هاتى
منها مخرطة الملوخية ... هيا .. هيا بسرعة .

وبعد عودتى تقول : اطلعى لى الغسيل وعدى
المشابك وارمى للبط حفنة من الذرة . وانزل فتقول : خذى
أمجد هاتى له مضاصة .

.. كل هذا سوف يوضع بكامله فوق رأسى وتفرغ
أمى من أعمال المنزل وتنتبه لى ... وهات يا أوامر ويدها
نحيت أمرها ، ورجلها أيضا تحت أمرها ، فرغم ثقلها
— اى أمى — وحجمها ولحمها المكتنز ، فان رجلها تستجيب
لها فى مرونة وخفة ... ترفعها فجأة وتدفعنى بها فى ظهري
فأنكفىء على وجهى انكفاء الموت أو ما هو أدنى الى
الموت .

كل هذا سوف يتراكم على رأسى لاننى أكلم ابن
الجيران ، أقسم أن كلاما مما تفهمه أمى لم يحدث مطلقا
بينى وبينه ، كل ما هناك أنه يسألنى عن أخى جابر .
— لا اعرف .. خرج فى الصباح ولم يعد .

- الا تعرفين متى سيعود ؟
— لا .
— وماذا .. الا تعرف ؟
— لا أحد نينا يعرف أين يذهب جابر ولا متى يعود .
— شكرا .

رائتى أمى .. وحسبها هذا كى تسدل الستار على مسرحية تعليمى فى المدارس ، تلك المسرحية التى كان من الممكن أن تنتهى نهاية سعيدة ، بتخرج البطلة دكتورة .. لكنها كانت من وجهة نظر أمى مسرحية سخيفة ، ستنتهى بالبطلة الى نهاية مدمرة لها ولاسرتها .

وأختى الكبرى سوسن ، أوقفت أمى قطار تعليمها أيضا فى محطة الثانوية العامة .. لماذا ؟ .. لأنها تأخرت فى المدرسة الى ما بعد الخامسة مساء ، بسبب اشتراكها فى قسم التمثيل بالمدرسة ، وكان هذا اليوم بروفة تحضيرية للحفلة الكبرى التى سيحضرها الوزير شخصيا وستشارك بها المحافظة فى المسابقة الفنية على مستوى الجمهورية .

وبعد علة موجهة بكل ما فى البيت من أدوات ، وبكل ما فى أمى من قوة وبكل ما لديها من صحة .. قالت :

— انتهينا تماما من موضوع المدارس .

ارتاعت اختى التى لم يزعجها الضرب ولم يؤلمها
القرص ، ولم يبكها العض والرفس والصفعات ، وانهمر
دمعها كأنه كان ينتظر هذه الكلية .

— والنبي يا ماما .. آخر مرة .

— لا مدارس بعد اليوم .

— مستحيل يا ماما .. أين اذهب ؟

— لك بيت .

— أرجوك .

— هى كلية واحدة ... لا مدارس بعد اليوم .

وتنوح اختى وتنفوس فى ركنها ، وتنسحق داخل
ملابسها ويتقوس ظهرها كالقطة أو كأنها تستعد لحمل
الأرض ، لكنها كانت فى الثامنة عشرة آنذاك ، عدة شهور
فى البيت ثم تزوجت ، أما أنا فأمامى مدة خدمة طويلة .. خمس
سنوات على الأقل .



تتميز أمي عن باقي الامهات بأنها تجمع بين متناقضات
الخلق أجمعين .. فليس من الميسور لاي انسان أن يتعامل
معهها ولا حتى أبى ، كريمة وبخيلة في آن واحد ، حسونة
وقاسية في ذات الوقت ، ذكية وساذجة في موقف واحد ،
سعيدة جدا لكنها خفيفة الحركة دائبة النشاط ، وهي جميلة
حينما وقبيحة حينما آخر .

حيرت في ضباها العقول والالباب ، شغلت القلوب
واسرت عقول الشباب ، حركت فيهم نوازع الطيش والنزق
من أجلها ، دفعتهم الى كل صغيرة وكبيرة فداء لها وقربانا
لهواها ، ورغم هذا فلم ينلها غير أبى ، وهذا هو أعجب
ما في الامر وأغرب ما في سيرة أمي .. وكل المتناقضات التي
أحصيتها لا تساوى تلك التي لم أذكرها .

أمي ضخمة الجثة ، عريضة الكتفين كأنها من نسل
فرعون ، ممتلئة بالشحم واللحم ، صحيحة الجسم ..
صوتها عال ونظراتها حادة تطل من عيون كحيلّة ذات
أهداب طويلة ، ووجه كالبدر مستدير ، وكل ما فيه
مستدير

أما إذا ضحكنا فالبراءة كلها والرقعة كلها والطفولة كلها .. لكن في طباعها من الشراسة والحزم أكثر مما فيها من الرقة والهدوء .. دائما ثائرة من أجل طعمنا وشرابنا ، من أجل قيامنا ونومنا ، من أجل ملابسنا ودروسنا ومدارسنا .. من أجل كلامنا وأخلاقنا .. من أجل الدق على الباب ومن أجل الأيدي والأظافر والأهداب ، من أجل الماء المقطوع والنور المنوع .

صوتها يسمعه من يعبر الطريق العام لا سلكى . الحارة فحسب .. وإذا أحست من محدثها أنه يفكر — مجرد تفكير — أن يلومها أو يلسعها بكلمة يقصدها أولا يقصدها ، تجدها على الفور تهجم عليه بسيل من اللعنات ، يظنون من الأمثال العدائية التي تقطه في جلسته ، حتى ليحس بأن نهايته قد دنت أو كادت ، فيلحق نفسه ، وينتقد ما يمكن انتقاده من ماء وجهه المراق ، لائذا بالصوت أو بالأسف أو بمغادرة الدار تصحبه اللعنة .

لم يفز بالفتاة الجميلة غير أبى ، وأبى حظه من الجمال قليل . وقد شاعت محاسن الصدق أن نجىء كلنا على هيئة أمنا جهالا ولون بشره وظولا وعرضا .

أما أبى .. ولست أدري لماذا أجد نفسى حرة فى أن أتكلم عنه كما أشاء بلا خوف ولا رهبة ، أتكلم عنه كما

أريد .. أتكلم عنه لنفسى ، على حين اننى أخاف ، بل أرتعد
إذا فكرت فيما تفعله أمى .

أبى مئى حيث الصورة غير جذاب وان كان خفيف
الظل قصر القامة ، وإذا كانوا يقولون اتقوا شر من
أقرب الى الأرض ، فلا يتعين على أحد أن يتقى شر أبى،
فهو لا يعرف الشر حتى لو رآه أمامه ، طيب جدا وحنون
جدا . ينهار اذا رأى دمية فى عيني طفل ، وتنبثق من عينيه
الدموع اذا رأى سيدة تبكى أو شيخ يتألم ، وحين كانت أمى
تضع مولودها لم تكن نرى وجهه ، حتى يتم كل شيء . فلم
يكن باستطاعته أن يتحمل صراخها أو الهيا . وحتى فى مكانه
البعيد عنا مشغولا بغيرنا لا يسمح لى فكرة تصور له حالة
أمى ومعاناتها أن تتسرب الى رأسه .

معلوماته عن الحياة محدودة جدا ، ولا يتطور فهمه
لها برغم المواقف التى يتورط فيها وقشر الموز الذى يتعثر
فيه .

وأذكر انه وقع مرة فى ورطة وخرج منها خاسرا
لجهله وعاتبه أحد أصدقائه فى المقهى ، فدافع عنه صديق
ثان قائلا :

— معذور يا جماعة .. أنه لم يصل الا أمس

— من أين ؟

— من بطن أمه

وضحكوا جميعا حتى أبى الذى لم يعرف الحزن ، او
هكذا يبدو .

كيف تزوج أبى من أمى ؟ .. لا تعرف .. هو المياه
الباردة وهى النار الموقدة ، هو التراخى والكسل وهى
الثورة والحركة ، هو الموت وهى الحياة ، هو التانى وهى
السرعة ، هو الصبر وهى العمل .. هو اليأس وهى
الامس .

أبى موظف بسيط ولكن أهله كان لهم صيت كبير فى
شئون المال والتجارة وكانت لهم علاقة وطيدة بآل أمى
فقبلوه .. وفى احدى المعارك الشهيرة بين أبى وأمى قتلت
أمى له :

— أنا لا أعرف ما الذى ابتلانى بك ؟

— حسن حظك اوتعمك فى الغالى

— أين كان عقلى

— خفت أن يضيع زمانك

— رضيت بالرخيص

— سامحك الله .. أنا لست مثلك ولا قدك ...
السلام عليك

— أفضل ما تفعل .

والحقيقة انى لا استسيغ فكرة ان امى رضيت بابى
خوفا من ان يضيع زمانها ، أو تذبل زهرة شبابها وهى الغضة
حتى الآن ، دفاقة بالحياة عامرة بالخصوبة ريانة الصبا
حتى ليقول عنها الجيران أحيانا فى عجب هو الحسد :

— سبع بطون وماتزال صبية بنت ال ..

هى حقا صبية ، لو سارت فى الشارع الان لغازلها
الشباب مغازلة الراغب فيها ، المعجب بجمالها ، المجذوب
لسحر عينيها ونعمومة بشرتها ودقة ملامحها ، وشراسيخ
ردفيها ، وآه لو اطل من ركن ملائنها السمراء ساعدها
الابيض وهى تلبس النصف كم ، وتجلى لحم مرفقها البنى ،
المنسرب فى استدارة كوز الزيد البلدى .

يرقبها كل الصناع وأصحاب المحلات وى شارع
الاربعين ، اذا اطلت عليهم كالقمر من حارة السكرى فى
طريقها الى السوق ، صدرها عريض مفتوح رأسها مرفوع
... تميل وتتبختر ... تملأ نصف الشارع ، ولا يحلو
لها أن تستير الا وسط الشارع ، والسيارات عليها أن
تنصرف من هنا أو من هناك .

وحين تعود الى البيت يتلقاها أبى بكلماته الهازلة
اللازمة .

- المحمل وصل
- يحملك عزرائيل
- يا أرض اتهدى
- الهى تتهد يا أخى

ويفرقع أبى بالضحك فرحا ، كأنه طفل ضغط على
عروسته فمرخت ، وكثيرا ما كان يفعل ذلك ليلتمس منفذا
للخروج الى المقهى ، وكانت أمى تحب أن يبقى معنا فى
المنزل صامتا ، ينفذ ما تأمره به ، كأن يرتق الجوارب أو
ينقى النرز أو يلعب الاحذية أو يكوى الملابس ، ولكنه يأتى
ذلك لأنه لا يحتمل أوامرها وثورتها المستمرة ، ولم تكن
أمى فى قرارة نفسها ترتاح لغيابه خارج المنزل حتى ساعة
متأخرة من الليل فاذا فعل ، فانها تتلقاه :

— حمد الله على سلامتك .. هل انتهيت من التسكع
فى الشوارع ...؟

- نعم
- وجئت لكى تنام ؟
- نعم
- تريد ان أجن !

- الم تجنى بعد ؟
- أخرج من دارى
- انام حتى الصباح
- تقطع لسانك
- سأنعمل

وكان أبى حين يجلس وسطنا ، تقتحم البهجة
صدورنا ، ويشرق النور فى جوانحنا ، ولم تكن أمى أقل
سعادة منا بوجوده ، لكنها لا تفصح مثلنا عن فرحتها
بأحاديثه وتعليقاته ... كان نافذة نتنسم من خلالها الهواء
ونحن داخل السجن الرهيب ، وكان صوته فى الحارة كخيلا
بأن يدفعنا الى الخارج لاستقباله دون أن نحفل بطعام
أو شراب .

وكانت أمى تهش له لكنها لا تبين وتكفى بأن تشتمه
فى دلال لا يرضينا ، وتسبه فى دعاية نخشى نتيجتها .

كان أبى يعمل أمينا لخزينة المنطقة الطبية بالسويس ،
ويتقاضى راتبا طيبا يضاف اليه دخل أمى من إيجار منزل
ورثته عن أمها .

كانت حالتنا المادية معقولة ، ولكن مصروفاتنا كانت
تتضخم يوما بعد يوم ، بحكم اضرار أمى على أن تقدم

لنا افضل طعام ، وبسبب اهتمامها بشراء ملابس جديدة لنا صيفا وشتاء ، بل وكانت تطمع ان تشتري يوما ثلاجة وخلاطا وماكنة خياطة ومروحة .

كثيرا ما فكرت امى فى بيع منزلها كلما فوجئت من سكانه بمشاكل ، او اذا سالتها الضرائب عن الرسوم او ظهر تحته الماء بسبب انسداد المجارى ، لكنها كانت تدفن هذا الخاطر الذى يوعز اليها ببيعها ، وتؤكد فى كل مناسبة انه لمستقبل الاولاد وليس من حقها التصرف فيه لاي سبب

وامى هى التى تتحمل دائما مشاكلنا وتتصرف فيها تصرف المسئول .

واذا طلبت المدرسة من احدنا ان يحضر ولى امره لسبب من الاسباب ، تشير امى على ابنى بضرورة الذهاب فينفض دون ان يعرف ما هى المشكلة بالضبط وتقول له :

— مستقبل اولادك يا رجل

— اولادك اشقياء مثلك ، ربما ضرب سى جابر افندى زميلا له بزجاجة او بحجر .

— ليس جابرا يا فالح انها سوسن .

— ألعن منه .. ربما نامت في الفصل أو ذهلت عن
الدرس ، بسبب ما تلاقيه منك ، أو ربما سبت زميلتها وشدت
شعرها .

— كيف عرفت ؟

— المسألة لا تحتاج الى ذكاء ... هي تتعلم القراءة
وانكتابه في المدرسة وتتعلم في البيت الشتيمة والضرب ،
تقلب هي الصورة ... في البيت تقرأ وتكتب وفي المدرسة
تشتتم وتضرب .

— انك تخرف

— يا خبر بفلوس

ولا تجد أمي حلا لهذا الاشكال الا أن تطرح ملاءتها
على كنفها ، وتتجه الى المدرسة تشق صدور الناظر
والمدربين بحديثها المفاجيء وتسبقهم بالصوت ، ولا تفهم
عنهم ولا يفهمون عنها شيئا .. المهم أن تحل المشكلة .

لكن هذا كله يتم — وهذا ما نفخر به — دون لبانة في
فمها وبلا ضحكة خليعة أو غمزة عين ، ولا يفهم من سلوكها
إلا ما تقصده وهو إنهاء المشكلة بالحق . وتفري الرجال
رجولتها فيطامنون من غلوائهم ويتنازلون عن حقوقهم لها

اعجابا بجرأتها ووعيتها ، وخوضها فيما لا يستطيع الرجال
الخوض فيه ، ولها فوق هذا سحر لذيذ يأخذ بالباب
محدثيها .

انجبت أمي بكريتها سوسن ثم أخى جابر ثم أخى
صابر ، لكنه مات وهو في الرابعة ، ضربته أمي علقة ساخنة
فأسرع إلى الشارع هربا منها فاذا بسيارة تندفع فجأة
وتسحقه تحت عجلاتها ..

لهذا جئت .. نعم بسبب موته جئت أنا .

يقول أبي : كان هذا الحادث في أواخر عام ١٩٥٠ ،
وكنا قد اتفقنا أنا وأمك على ألا تنجب بعد صابر ، لكن أمك
عندما فقدت صابر أرادت أن تعوضه بآخر فحملت فيك ..
وهكذا جئت أنت ، لذلك اسميك بدل فاقد .

كان يقول لأمي إذا سألت عني ولم يجدني :

— يبدو أننا فقدنا البديل ... استعدى كي تلدى
غيرها .

— وهل أنا خادمة لابيك

— أنك بثلاث عجلات .. كيف تسيرين باثنتين !

— ظريف

— ونسمى المولود بدل البدل

ويكركر بالضحك وتتوالى تعليقاته ، ونحن نضحك
منه وعليه ، وهو غارق في بحر من الرضا والسعادة .

نحاة يهب أبى واقنا ويقول

— يكفى هذا اليوم ، وغدا نلتقى .. الى اللقاء
يا اطفالى الصغار .. الى اللقاء .
تهب أمى صارخة فيه ، اذ تحس برغبته في الخروج
أو الهروب .

— لن تخرج .. كلمة واحدة .. لن تخرج

وعندما يحس أبى بالحصار يبدأ في البحث عن كلمة
تغيب أمى فتطيل لسانها عليه ، تبسطه الى آخره كالسوط،
بهذا يستطيع الخروج الى المقهى ليجد هناك الحرية والراى،
والاحترام والبسمة والكلمة الحلوة وبعضا من الشخصية
المفقودة ، يحققه له زهر الطاولة .

أصبح يتنازل عن كثير من حقوقه في البيت معتمدا على
امكانية نيلها في المقهى .. هناك يشمل الدخان الجيـسع
وتغطيهم ملاءة الليل ويموت جميع الناس من ذاكرتهم ،
ولا يبقى في الدنيا غيرهم . هناك ينتهى العالم وهناك يبدأ .

اول كل شهر تقول امى لابى : اين الماهية ؟ ...
اتحسبني اجهل الايام ؟ ولا يجد ابى جدوى من التهرب
فيخرج الماهية في صمت ، وتعددها امى بسرعة قبل ان
ينصرف ، ولو اكتشفت فيها نقصا ما .

— تعال هنا

— ماذا ؟

— ما هذا ؟

— الماهية

— اعرف .. اين الباقى ؟

— الباقى جنيهان وجنيه دفعته مساعدة لرميل ماتت
امه

— ماهيتك تابعة اذن للجمعيات الخيرية .. جنيته
لهذا وآخر لذاك ... فوق للدنيا وفوق للاولاد .. تقرب
وتغطس لابد من الجنيهاات الثلاثة . وبعد يومين او ثلاثة
يسلم لها الجنيهاات الثلاثة ، واذا ضغطت عليه لكى تعرف
من اين احضر هذه النقود .. يقول لها لكى تردها له :

- لعبت بهم وكسبت .
- فلوس حرام .. حد الله بينى وبينها .
- .. هاتها اذن .

— ولا تدخل البيت الا بجنيهاات حلال

ويجد انه لا مناص من الدفع :

— بصراحة .. بصراحة .. اشتغلت وقتنا اضافيا

اللقاء الحاد والنقاش الساخن بين ابي وامى لا يكونان الا اول الشهر ، لانهما يختلفان على شىء محدد وبعد ذلك لا تريد امى منه شيئا .. قالت له مرة :

— ابعث لنا بالماهية ولا نريد ان نراك حتى يوم القيامة ...

ويخالجنى فى ذلك شك كبير ، اذ ان ابي بات مرة عند احد اصدقائه ، جمعتهم سهرة لا تتكرر ، وكان السبب فيها اكلة كوارع ، يهواها ابي وتروق له كثيرا الا ان امى لا تحبها وتمنع دخولها البيت .

وبعد السهرة الرهيبة التى لم تكون كوارعا فقط .. تساقط الاصدقاء فى اماكنهم ، واستفرقتهم بئر النوم العميق ولم يصعدوا الى سطح الحياة الا ظهر اليوم التالى .

يومها قلبت أمى الأرض بحثا عنه وأرسلت جابر الى
العبل ليسأل عنه ثم ذهبت بنفسها الى صاحب المقهى
الذى قال لها .

— أمى لا اعرف يا ست أم جابر .. لقد ذهبوا أمس
مبكرين على غير العادة .

لم تذق أمى طعم الزاد حتى عاد أبى بعد العصر مرهقا
يجر قدميه كأنه يحمل ثقلا ... وتلقى ما استحق ومالا
يستحق من السب والصراخ ، دون أن يحفل بما تقول كأنه
لا يسمع ، وأخيرا قام فارتدى على السرير .

بعد قليل تناهت الى اسماع أمى آهاته .. أسرع
اليه باهتمام مفاجئ .

— سليمان .. مالك يا سليمان .. رد على ،
وبصعوبة شديدة قال :

— لاشئ .. أنفاسى .. لا أستطيع أن التقط أنفاسى
— افتحوا النوافذ يا اولاد .

وانقضت عليه تخلع له حذاءه وتفك أزرار قميصه ،
ثم أخذت، تدلك له صدره وتريق على وجهه العطشور ،

وأمرت « بطشت » به ماء بارد مذاب فيه ملح .. غمست فيه قدمي أبي .

تولته حتى أفاق وخفت وطأة تعبته ، ثم قدمت له كوبا من الشاي وبعض حبات الدواء الذي تراه مناسبا ، فأبى تفهم في علاج كثير من الأمراض الاليفة أو المنزلية ، مثل ارتفاع الحرارة والمغص ، الكحة والانفلونزا ، الاسهال والامساك والدوسنتاريا ، وجع الاسنان وعلاج الحروق والجروح . الاغماء والدوخة . التقيؤ وغمة النفس .. الصداع وضربة الشمس .. غير أمراض النساء والولادة.

ربنا يا أمي يحفظك لنا ويسامحك لأنك قلت :
— ولا كلمة ... انتهينا تماما من موضوع المدارس.

رفض أخى جابر التعليم لانه راسب فى الثانوية العامة
سنتين وعرضت عليه امى الاستمرار حتى لو انفقت عليه
كل ما تملك فابى ..

— ليس العلم هو كل شىء فى الدنيا

— لكنه كل شىء بالنسبة للرجل

— الكل يحتاج الى التعليم على الاقل لسن معينة

— سوف تجد البنت من ينفق عليها ولكن الرجل
هو المسئول

— العلم ليس مصدرا للرزق ... بل العمل هو
المصدر

— العمل الكريم يعتمد على العلم

— ليس شرطاً .. يمكنى ان اجد عملاً بالقدر المحدود
من العلم

— كما ترى يا بنى

أحى جابر كون مستقل ، عالم وحده .. تضحية
كبرى . يحاز فيه أعرف الناس به ، المحه خارجا داخلا ،
بعث بلحيته التي لم يحلفها منذ أن نبتت ، وثأته من العيب
أن يحلفها ... أتخيل نفسى ولى هذا اللحية فأنزعج .

وبالرغم من شكلها القبيح ، إلا أن أخى جابر يبدو
جميلا ووسيما وهو يرتديها .. أقصد اللحية .

جابر طويل القامة واسع العينين ، شعره أسود
غزير ، أنفه مدبب وفيه بعض الطول ، قليل الكلام .. على
الأقل معنا ، كأننا لسنا جديرين بكلامه ولا نفهم ما يفكر
فيه . نظراته معبرة ويمكنك الاكتفاء بها ردا على سؤالك ،
وأحيانا يجيبك بالإشارة وكان الكلام عملة صعبة لا داعى
للإسراف فيه بمناسبة وبدون مناسبة .

تحافظ أوى عليه كثيرا وتعتبره كل أملها فى الحياة ،
غرسها الذى يسعدها أن تراه يانعا نثمرا ، يزين الحقول
ويغنى على الناس كلها ثمره النادر .. تراه الوجه المضىء
فى رحلة عمرها ، وهو يحاول من جانبه أن يجعلها تخفف
من مبالغتها فى مشاعرها تجاهه ببعض الجفاء ، لكن ذلك
لم يكن له من أثر إلا ازدياد اهتمامها به ، ولا يهم غياب أبى
ولا يهم غياب أى من أبنائها أو حضورهم بقدر ما يهمها

غياب جابر ، انه بمعنى لها الشيء الكثير .. وهي تعشقه
وتهيم به ، وتفكر فيه دائما حتى وهي نائمة .

اذا قلت لها : لقد حضر جابر ، قالت في دهشة
كأنه كان في القطب الشمالى :

— حقا ..

— نعم

— أين هو ؟

— دخل الحمام .

فتذهب اليه وتدق الباب ولا يقول من :

— هل حضرت يا جابر ؟

— نعم

— هل أعد لك الغداء ؟

— نعم

— احضرت لك الكرنب الذى تحبه

— شكرا

— هل ستبقى طويلا بالحمام ؟

— دقائق .

بعد الطعام ، يجلس على الكرسي ويرفع قدميه على المنضدة التي كان يأكل عليها في وسط الصالة ، ساقا على ساق وحذاء على حذاء ويسند رأسه على كتف المسند مرتكزا على مرفقه ، ومرفقه مستند الى وسادة اخرى بجواره ، ويظل يعيث في لحيته شاردة كأنه يفكر في إعادة ترتيب العالم على نسق آخر .. او لعله يفكر في أشياء أخرى لكنها ليست اقل أهمية .

توسط له خاله للعمل في شركة كبيرة بالسويس ، جلس على مكتبه يوما واحدا ولم يحتل .. شاهد زملاءه بالمكتب يتحدثون ويتقهنون ويتبادلون السجائر والاطعمة والصحف ثم يقضون باقى الوقت في المشكلات الشخصية والفائلات الجديدة ومباريات الكرة. تنذر وخرج قبل الموعد ولم يذهب في اليوم التالي .. قالت له أمه :

— لماذا لا تود الذهاب .. فهمنى ؟

— ~~أنا~~ شركة اطفال .. ~~مهمنة~~

— ~~أنا~~ شركة كبيرة

— لا . يعنى لا

وفى المساء سأل أبى عنه وعن عمله .. قالت له أمى :

— تركه

— ابنك شكله شكل انسان ، لكن مخه مخ حمار
— ما هذه اللخبطة يا رجل ؟. انك لا تفهم ما تقول
— ابنك هو الذى لا يفهم لكثرة ما ياكل . . وانت
النسب .

— سبيحك عن عمل آخر . . ~~الذي~~ ابني رجل . . هل
تعرف ماذا تعنى كلمة رجل ؟
— لا اعرف
— ~~حقا~~ انك لا تعرف

كان اخى جابر ياكل كثيرا بطريقة غريبة حيوانية
ولا تصلح له امه هذه الطريقة رغم انها لا تسمح لنا بان
نأكل مثله ولا نشرب مثله . . لابد ان نبدا باسم الله واذا
انتهينا حمدنا الله بصوت عال ، واذا شربنا نشرب في صمت ،
ومضغنا الطعام والفم مغلق ، ولا يتساقط الفتات على
الملابس . . الى آخره . . اما هو فيلقى الطعام في دفعات
متلاحقة الى فمه ، فيمضغ ما يستطيع ويزدرد ما يعرقل
الطريق ، ويشرب الماء ليساعده على البلع .

ويرفع القلة الى فمه المفتوح الى آخره فيبتلعها
كاملها .

أحسن اننا نعمل عنده ، حتى أمى تعمل عنده ، وهى
السبب فيما هو فيه من الانتفاخ والعظمة .. اذا اجتاز
بابا صفقه بشدة وكأنه يحاول أن يتثبت من صلابته ، وكان
يحكى لأصحابه الاخبار الكاذبة والغريبة والمفاجئة ، ليرى
مدى فزعهم وانهارهم .. وليتيقن من قوة أعصابهم
وتهاشكهم ، ومن قدرتهم على العيش فى خطر بلا خشية أو
فسزع .

يدق الباب فنقول : من

فلا يرد ونسأل بالحاح : من ؟ فلا يرد ونحن لا نفتح
الا اذا قال الطارق من هو ، لكنه لا يرد وأخيرا يصرخ فينا .

— افتحوا أيها الجبناء .. هم تخافون ؟

فنفتح ونتراجع وهو يقول :

— الخوف .. الخوف ! لماذا الخوف ؟

وكان يفاجئ أمجد وله من العمر خمس سنوات
قائل له :

— بخ .

فاذا ارتعد ضربه وصرخ فيه

— مم تخاف ؟ ..

فبيكى الولد ويصرخ فيه أكثر

— جبان وتبكي أيضا يا امرأة .. كن شجاعا يا كلب

والا علقتك فى السقف .

تعود جابر الذهاب الى النادي ليرفع الانتقال ويلعب
تنس الطاولة على المنضدة الخضراء ويقرا في
كتب ليست كتب مدارس ، ويتداول مع اصحابه
— اذا جاؤا الى البيت — بعض اسماء لفلاسفة اجانب
يتناقشون في آرائهم ، يتحمسون للبعض ويهزاون بالبعض
الأخر ..

ولكن هذا كله لم يكن ليصرفه عن زيارة حبيبه الاول
والاخر ... البحر .. واسم بحرنا خليج السويس حيث
يحلو لجابر الغطس تحت الماء والتفتيش في القاع عن الغرائب
... القواقع والاحجار، كما يهوى صيد السمك المنقطوالمحار
والاصداف، وكان كثيرا ما يشترك مع مجموعة من الصيادين
في رحلاتهم ويأخذ نصيبه مما اكتسبوا .. كان هذا هو دخله
الوحيد ... البحر لذته ومهربه وصديقه وأستاذه .. وربما
كان في طباع جابر من طباع البحر الكثير ... ولذلك يتهمين
علينا ان نفهم طباع البحر اولا حتى نستطيع بعد ذلك ان
نفهم طباع اخى جابر .

انه حر يشرب ما يريد ان يشرب ، ويأكل ما يشتهي
ان يأكل ، ويمشي الى حيث يشاء ، وينام في المكان الذي
يرتضيه وعلى الجانب الذي يريحه ، لا يقول كلمة لا يريدتها
ولا يصمت الا اذا اراد الصمت .. ليس لاحد عليه سلطان .

هر .. ينطلق كالعصفور ويزار كالاسد ويجلس كالأمير
حر .. كالريح والفراش والسحاب .

أما أنا فتكفيني عيون أمي سجنا وقيدا .

تندرس في جسدي ... تتحسنني وتتفحصني ، تعد
أنفاسي ، تحدد لي السنتيمترات التي أتحرك فيها ، وترسم
لي الدائرة المحدودة التي لا تزيد عن باب بيتنا لا
أستطيع أن أذهب بعيدا بعيونى أو بفكرى ، ولا حتى بخيالى
وأحلامى ..

تجعلنى إطاطىء .. أخبىء أفكارى — إذا كانت لى
أفكار — تحت قدمى فلا أمل فى التفكير .. لا أمل إلا فى حياة
البهائم .. أنا غير حاقدة على أخى ، بل لا أستطيع ذلك ،
وإن كنت لا أنكر ما يخالجنى من شعور ازاءه وازاء غيره
من الرجال .. إذ يحصلون على حقوق ليسوا جديرين بها ،
بل أنهم لم يفكروا فيها على الإطلاق ، وإنما نعطيها لهم نحن
النساء ونذكرهم بها وقد غفلوا عنها ، نبتكر لهم حقوقا
علينا لم تكن لهم ولن تكون .. ها هي أمي تعطى جابر مالا
يحق له ولا لغيره ولا حتى أبى ، لقد تعودنا على حكمهم
نلذ لنا سيطرتهم وغابتهم ... يا له من فكر متعفن ضاعت
معه عقولنا وهزلت أرواحنا .. وها أنذا الآن أضل
واتهافت .. وكيف لا وقد أسدلت أمي الستار على مسرحية
تعليمي فلن أذهب الى المدرسة بعد اليوم ، ومن يستطيع
أن يرد كلمة قالتها أمي بكل ما فيها من قوة وإرادة .

* * *

يوليو ١٩٦٨

مر عامان ونصف العام منذ أن أخرجتني أمي من المدرسة ، ولكن هذه المدة الوجيزة التي لا تذكر ضمن أعمار الناس ، ولا تحسب في حياة الشعوب ، شهدت في بيتنا وفي حياتنا ، وحياة بلادنا كلها آثارا جمة وأحداثا جساما ، وكانت في أجمالها شؤما وإي شؤم ، دمارا وإي دمار ، كما كان لها فعل نافذ في حياتي وتأثير بالغ على فهمي لهذه الحياة ، وإدراكي لما يعترئها من تغير وتبدل مفاجئين ، تتصارع عوامل كثيرة في أحداثهما .

لا يستطيع الإنسان مهما أوتي من العقل والحكمة والتجربة والعلم ، أن يحيط بكل الأسباب التي تؤدي إلى حادث معين ، فهناك دائما عنصر مجهول يتدخل ليضيف علامات معينة وينحرف بالطريق إلى جهة ما ، ويؤثر على النتائج بشكل أو بآخر .

هناك دائما هذه العناصر المجهولة والمؤثرات الخفية التي لا ترد كلها إلى الله ، لأن الكثير منها سييء وأنا لا أومن أبدا بأن الله يفعل غير الخير حتى ولو كان ابتلاء للناس ، حسبه ما كان يقول مدرس الدين . . أنا لا أفهم في هذا

الإبتلاء أو الامتحان .. أنا / انهم فقط أن الشر من صنع
الانسان ، ولكن الله لطيف رحيم بعباده .

لقد مر علينا العمان ونصف العام بها يساوى عشر
سنوات .. فليست أنا تلك الفتاة التي عرفتوها في المدرسة
.. اننى احمل اسمها فقط ، لكن جلدى ليس جلدھا، وعقلی
ليس عقلھا وروحی لیست روحھا ، وآمالی لیست آمالھا
وتجاربی لیست تجاربھا ... اننى عجينة اخرى ، اخذت
الامل لديها بكم من الیاس ، وامتزج الحب فی قلبھا بكم
من الحق ، وشاب الصفاء فی نفسها كثير من انحب
والدهاء ، وأما البهجة والابتسام فی روحھا فقد داهمتھا
الكآبة والتعاسة .. حتى اللیل لم يعد نوما كله ، والطعام
لم يعد طیبا كله ، والنهار لم يعد ضوئا كله ، والاحاديث
فقدت جداولھا الصافية الرقراقة وأصبحت تمر بالجناس
والصخور .. آه .. كم تغيرت الدنيا وكم تغيرت أنا ولم
أبلغ بعد سبعة عشر عاما .. ويا لها من سن .. سن
الامل والتفتح واستقبال الحياة .. وانى لاخل نفسي فی
السابعة والعشرين ، وكأن هذه الفترة التى یقال عنها فترة
الصبا والشباب قد سقطت من عمری .

هيا نفتح الكتاب .. صفحاته قليلة كدقائق الموت ،
وقطراته مركزة كنقاط السم ، لا تبتسوا فستنتهى الحكاية

ونطوى الكتاب ، وعيننا أن ننسى كل شيء لكي نعيش ،
علينا أن ننسى لكي نعيش .. لأن الرأس هو هو ، ولكن
الهموم تزيد على الإنسان والعمر أقصر من أن يحل مشكلة
واحدة ، لذلك يطمئن علينا أن ننسى كي نعيش .

بعد خروجي من المدرسة لم أبق في البيت غير أسبوع ،
انتهى بجولة قامت بها أمي في السوق لشترى بعض
احتياجاتنا التي تراني عاجزة عن شرائها كما تهوى ، وفور
عودتها من جولتها ، أمرتني أن اتجه من نوري إلى السيدة
احسان الخياطة التي تسكن أول دور في عمارة الحاج شهدي
صاحب مصنع البلاط وهي عمارة معروفة في حينها .

فكرت للحظات فيها دعا أمي لذلك ، ألم يكن غرضها
أن أبقى معها لمساعدتها وعدم الخروج إلى الشارع حتى
لا أكلم ابن الجيران .. ألا تفكر في راحتها وتخفيف العبء
عنها .. أننا أنفشنا نشفق عليها من هذه المسؤوليات التي
تحملها وحدها دون أدنى مشاركة منا ، لكن منذ متى افكر
في أمر أصدرت أمي بشأنه قرارا .

ربما ارتأت أمي أن الفرصة ما دامت قد ضاعت على
كي أتعلم بالمدارس ، فلا بأس أن أتعلم حياكة الملابس ،
فأنفع نفسي وبيتي على نحو ما ، والعمل من وجهة نظر أمي
هام جدا حتى للمرأة ، فهو إثبات لذاتها وشخصيتها ،

وشغل الفكر عن التفاهات وسوء السلوك ، فضلا عن دعمه للصحة التي تذوى بالركون .

ذهبت الى السيدة احسان وهى سيدة تكبر ابنى سنا ونقل عنها جمالا ونشاطا وصحة وخاصة فى سمعها وبصرها ، وربما هذا ما دعاها لقبولى مرحبة ..

بدأت التعليم بلضم الابرة ، ثم فك السراجة فتركيب بكرة الخيط على الماكينة وتوصيل الخيط حتى ثقب الابرة ثم التزييت وتركيب المكوك وتعبئته ، فالجلوس على الماكينة والتدريب على ثنى ذيل فستان ، أو توصيل كم أو خياطة اسورة كم ، ثم تدريب على حياكة ما هو اعقد ، الى ان جاء دور المقص وهو اهم عملية من عمليات الحياكة ، فيه الفن والعلم والابتكار .

كنت اتقدم بسرعة لان السيدة احسان كانت تحبني وتعتمد على كثير ، وتنقل بين من خطوة الى اخرى ، ومن مرحلة الى ما بعدها وكأنها تنوى ان احل محلها .

كنت اذهب اليها قبل الثامنة صباحا ولا اعود الى بيتنا قبل الثامنة مساء واحيانا بعدها ، وكم سهرنا ليلالى بطولها حتى الصباح ، وتلك هى فترات المواسم والاعبياد والافراح وافتتاح المدارس .

لم أجد بأسا في أن أنظف شقتها ، واعد لها بعض الطعام الذي أعرف ، وأحيانا كنت أتناول الغداء معها بدل العودة الى منزلنا ، وكانت خدمتي لها بايعاز من أمي تقديرا منها لفضل السيدة احسان في تعليمي ، ونظرا لسنها ووهن صحتها .

كان وجودي عندها مريحاً لي من حيث الإقامة ومفيداً لي من حيث التعليم ، بالإضافة الى الخبرة التي اكتسبتها منها ومن الزوار والزبائن ومعظمهم من السيدات .

كانت النسوة يمكنن معنا بالساعة وأكثر ، يحكين الحكايات والمشكلات وما أكثرها وأغريها ، حتى لقد فهمت من الأمور ما لم يكن من المستطاع تحصيله من الحياة ، لو قعدت بالبيت أو ذهبت الى المدرسة ، ولو أن للمدرسة مذاقاً خاصاً ساظل أدهو اليه ما دمت حية .

ولم تكن على الدوام وحيدتين، بل كانت السيدة ساكنة الشقة المقابلة واسمها أشجان ، زوجة صاحب العمارة أو هي صاحبة العمارة ، تزورنا كثيراً لأنها وجيدة دون أنيس من ولد أو بنت ، وزوجها طيلة النهار مشغول بالبلاط والاسمنت والعمال والبناء ، والبيع والشراء .

أشجان سيدة تجاوز عمرها الثلاثين . جميلة وطيبة ، لكنها تبدو كئيبة حتى لو ضحكت ، وتطل ملامح الأتسى من وجهها ، وعيناها تقولان لك في صراحة انى وحيدة مغلولة

ومخزونة ولا أمل في تغيير هذه الحياة التعمسة.. ولكن حالها هذا لم يدم طويلا فقد جمعتها واوآخى جابر علاقة عاطفية .

في أحد الايام .. جاء جابر ليأخذنى الى البيت بسبب مرض والدتى والتقى بأشجان عند السيدة احسان، ونظر اليها ونظرت اليه ولاحظت ذلك للوهلة الاولى وقد بدت الصورة واضحة على وجه اشجان ، ولم أكن ساذجة أو طفلة حتى لا أفهم ماذا تعنى نظرتها ولم يغيب عنى مغزى ارتباطها ، وهروبها فجأة من شقة احسان الى شقتها وقد شملها اضطراب لم نعهده ، انطلقت الى شقتها وأغلقت عليها بابها كأنها تهرب من ذنب أو كان رجلا ضبطها عارية .

لا يبقى السر سرا للابد .. فقد تعددت تلك المرات التى يحصر فيها جابر ليأخذنى ويهر عليها فى شقتها ، ويلقاها مشغوفاً وتلقاه مهللة ، ولاحظت انه يحمل اليها فى بعض الاحيان كتباً اطلعت على بعضها خلصة ، ماذا هى فى مرة قصص الانبياء وفى أخرى قصص معروفة لاشهر المؤلدين من العرب وغير العرب فكانت الدهشة تأخذ على كل طريق ، لاننى أعرف أن ما بينهما ليس غير الحب ، الحب الملتهب ، فما دخل هذه القراءات ، قال جابر لى مرة مشيراً الى علاقته بها :

— لقد لمست لديها حبا للثقافة ورغبة فى الاطلاع وانا اشجعها على هذا الاتجاه .

* * *

موجئنا في مارس ١٩٦٧ بالمنطقة الطبية تتهم أبى بتبديد الف جنيه ، واعترف أبى . لكنه لم يفصح عن الأسباب الى دفعته الى سحب هذا المبلغ وفيما انفته .

وتحرك جابر سريعا يثق ابواب كل معارفه ، الى ان فككه جمع نحو ربع المبلغ المطلوب ، واستطاع أبى ان يحصل على ربع آخر ، وكان لا بد من سداد المبلغ كله او السجن ..

طلب أبى من أمى بيع منزلها وسداد الباقي ، لكنها رفضت بشدة وتوسلنا اليها ، فلم نلق منها الا المصراخ المتواصل .. لن ابيعه ابدا لن ابيعه .. انه للاولاد

وسمى كثير من المعارف وبعض مسئولى المنطقة الى مدير المنطقة ومحاييها لتخفيف الاجراءات ضد أبى ، وانتهت جهودهم الى اصدار قرار بنقله الى القاهرة .. فجئ أبى . واشعلت أمه التى لم تكن تميل لأمى نار غضبه ، واوعزت اليه بهجر أمى لانها كما قالت عنها منذ زمن لا تستحق أبى ... والزوجة الاصيلة لا تتخلى عن زوجها وقت الشدائد،

ألحت عليه وأسرفت حتى طلقها فعلا .. وانتقل في مايو
الى القاهرة .

والحقيقة ان امى حين علمت بخبر المبلغ استولى
عليها الذهول ، وتبادر الى ذهنها اول ما تبادر ان هذا
المال انفقته ابى على زوجة اخرى ، او خليفة ، وكان هذا
غريبا منها في نظري ، لان ابى لا يكاد يقدر على طلباتها ،
فكيف بطلبات زوجة اخرى او خليفة .. وقد أقسم لها ابى
ان هذا المال لم يذهب في هذا الاتجاه أبدا .. لكنها أبت
مساعدته ببيع منزلها ، وها نحن ندفع الثمن تمزقا وضياعا
.. وغدا البيت خاويا الا من امى ولديها الصغيرين اما انا
فأعود في المساء وكذلك جابر .

كانت امى تصخو بالليل منزعة لتصرخ قائلة : الفاجر
وحين تهدأ تقول : سايحك الله يا سليمان .. لكن البيت
للأولاد وليس لك فانت لا تؤتمن .

ثم كانت حرب يونيو وهزيمة الجيش المصري ، بهذا
الشكل الغريب ، الذى كان له اثر كبير على كل فرد وعلى
كل نبات وعلى كل جباد .. على الشوارع ولون الجدران ،
على صفاء السماء وطعم النهار ، ورائحة الامسيات ..
سافر اخى جابر بعد نحو شهر الى الخارج على باخرة
يونانية وانقطعت عنا اخباره .. وغدونا أسرة صغيرة ،

انكمشنا وتضاعلنا ، قل عددنا فجأة ، وقل دخلنا ايضا
لن بيت أمى دمرته قذائف الاعداء . فاضطرت لحياكة بعض
الملابس لحسابى بتشجيع ومساعدة من ابلة احسان .

وفى سبتمبر ٦٧ أمرت الحكومة بأن نرحل عن السويس
لاحتفال بدء المعارك ... فهجرنا مدينتنا الحبيبة الى القاهرة ،
حيث أقمنا عند نسيب خالى بالسيدة زينب ... وهو رجل
ثرى وكان معنا كريما الى حد أنه طلب أن تقيم عنده ابلة
احسان ، لكنها رفضت فبحث لها عن حجرة قريبة .. ولم
يطل به العمر فأسلمت الروح بعد شهرين ولما كانت بلا
وريث فقد آل الى كل ما تملك ولم يكن غير ماكينة الخياطة
وبعض الاواني الفضية القديمة .

وهكذا كان على أن أقوم بحياكة الملابس بنفسى لزيائى
الذين تعددوا فى شوارع وحارات السبدة زينب .. وعاد
على ذلك بخير كثير ، كان كافيا للاتفاق على أسرتنا الصغيرة
.. إلا أن احساسا بالتعاسة كان قد تسرب الى نفوسنا
بسبب فراق أبى وغياب جابر الذى كنا نعول عليه كثيرا
.. هبطت الاحزان الى أعماقنا وترسبت وتشكلت
لنصبح جزءا من وجودنا وجائبا من ملامحنا .

اشجان العناوى

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

كنت ازداد شعورا بالعدم يوما بعد يوم ، فأنا لاشيء ،
حياتى لا شيء وجسدى لا شيء ، ماضى تافه وحاضر يجثم
على صدرى بلا طائل ومستقبل مجهول .

شابة جميلة ، فوارة الجسد ، سليمة البنيان ...
مسجونة فى قفص حديدى ولكن وسط الناس ، وفى ميدان
مزدهر بالحركة مغمم بالحياة ، لو كنت فى سجن مهجور خارج
المدينة ، ما كان لذلك أى اثر على ولا ضرر .

لكننى ميتة وسط الاحياء ، عاجزة وسط القادرين ،
وليتنى ميتة حقا فأقبر وينتهى امرى ، لكننى مفتوحة العينين
مطالبة بأن أعيش .. ، وباليتمنى عاجزة حقا فأقعد ، ولكنى
شعلة من الحيوية والنضرة ، والشباب يتدفق فى جسدى
وروحى وعقلى .

لا املك غير تنهيدات حارة ابعثها آتاء الليل واطراف
النهار ، لا يشغلنى عملى فى البيت عن همى ولا يصرفنى نوم
الليل عن كرى .. النهار معتم لدرجة أننى اخال الناس
تعيش داخل القمام ، والليل حالك لا يعرف الا الظلمة ،
لا تسقط عليه قطرة من قطرات الضوء ولا تنبت فى أرضه

نبته من نور .. فى السماء نجوم حقا ولكنها نجوم تبث ظلاما
ويجئ القمر احيانا ، يطوف بالمدينة ، مكفهر الوجه مقطب
الجبين ، لا يسأل عن الحزانى كما كان يفعل ، ولا يأسه
للمكتئبين كمعهده دائما .. لا يشارك مكروبا كربه ولا مهموما
همه .. يدور كأنه يسجل فقط أحداث حياتهم ، انراصهم
ومصائبهم ولا دخل له بعد هذا .. ماذا جرى يا ترى لهذا
القمر ؟

ما أقسى الحرمان على الجائع ، وما أقسى الضياع
على التائه ، وما أقسى الصحراء على الظمان ، وما أقسى
العنت على المقهور ، وما أقسى الصبر على المظلوم .. وما
أقسى الحياة على من يحيها خاضعا مستذلا بضعف
ما .. بعجز ما .

لقد أصبحت أدرك مشاكل الآخرين دون أن أسألهم ،
ونضجبت نفسى حتى غدت المح الاسى فى العيون الحية
التي لا تبين ، والنقط الهم فى نفوس ابية .. لكن
مشاكل الناس تجد حلا يوما ما ومشكلتى لا تجد
حلا ، وكروب الناس تجد مفرجا يوما ما وكربى لا يجد
مفرجا . حفرت مشكلتى حفرا ابديا والمجتمع يعرفها
وبرضاها وكذلك العرف والقانون .. اما انت يا ربى فاك
تعلم من امرى ما أجهله .

الى من اشكو .. الى ابي الشيخ الذي اتعده طول
العمر وعبء السنين وضعف الجسد ووهن العظام ، وماذا
اقول له ؟ .. هل اقول له اننى يا ابنى احتاج الى الشباب
والحياة .. احتاج الى فيضان يقتحمنى . . يدهمنى ،
يجرنى الى الحياة جرا ، ويدفعنى الى غمارها دفعا ، هل
اقول له اننى يا ابنى احتاج الى من اتمتع معه ، وأمتعته
بشبابى ، احتاج الى من انجب له ولدا أو بنتا ، فنصيب
بعضا من حلاوة الحياة وننال قسطا من نعيم الدنيا
وزينتها ، كيف اقول لابي وهو الذى زوجنى للحاج شهدى !

ابنة الثانية والعشرين المتزوج ممن كان في
الخمسين ، صاحب مصنع بلاط وعمليات ، و ثراء لا اعرف
مقداره ولم افكر يوما ان اعرف هذا المقدار .. فهو في نظري
هرم خشبي متهرىء وقطعة من رمال ، اللعنة على المال
حين تملكه وحده بلا صحة ولا شباب .

الحاج شهدى سبق له الزواج مرات ، وأنجب من
الاولى ولدا هو الان ساعده الابن في المصنع وفي كافة
الاعمال .

كلمات محدودة تلك التى تربطنى بهذا الرجل القريب
الغريب ، وطعام ليس بالهنئ ، ونظرات مسطحة بلهاء
لا تحمل معنى .. فلمن افتح قلبي ؟

هل أحكى لأمى وهى التى تخلصت منى ، أو أطمأنت
على مستقبلى من وجهة نظرها ، ولا يههما غير ما تحصل
عليه منى بعلم زوجى طبعاً ، ماذا أقول لها وماذا بيدها إن
تفعل ؟ أم أشكو لآخى منصور الذى تركنا وتزوج من فتاة
قاهرية تسكن شبرا ، وكان جبهة قوية ضد زوجتى من
شهدى .. لكن أين هو ليدافع عنى ؟ لقد شغلته زوجته
نما ان غاب عن السويس حتى أسرعوا بزواجى وشهدى
كأى علية نصب أو سرقة . هل أشكو للسيدة
احسان الخياطة التى تسكن قبالتى فى نفس العمارة وماذا
يجدى لى هذا ؟ ولكن الأمل يبقى دائما .. الأمل فى المجهول .

كان زوجى يتعرض بين الحين والحين لازمة قلبية
وقال له الطبيب المعالج أن مرضه القلبي سوف يتضاعف
مع أى مجهود ، وخاصة المجهود المنزلى مع الزوجة وحسين
أذكره بنصيحة الطبيب يقول : ومتى أذوق هذه الحلوة
أذن ، منى أستمتع بها أمتلك ؟

— حين تشفى أنشاء الله .

— أمراض القلب لا أمل فيها .

— لا تقل هذا أنك فى صحة والحمد لله .

— أذن هيا ولا تتراجعى هكذا

وأحيانا أقول له : لقد جئني الدورة، فيقول : مستحيل
هل تأتي الدورة كل اسبوع ؟

أحاول رده عنى معتدة حينا على نصيح الطبيب ،
وحينا على الكذب ، كى أخفف من هذه اللقاءات التى ترهق
أعصابى وتصدم مشاعرى ، لانها لقائى بعجزه وضعفه
وشيوخته .. لم أنجب منه رغم مرور عشر سنوات ،
حملت مرة وسقط الجنين فى الشهر الثالث .

أشاهد فى التلفزيون وأسمع فى الراديو أحوال الناس
وكيف يعيشون .. والشباب كيف يحيا ، وكيف يرقص
ويسافر ويلعب ويبتهج ويتنزه ، أما أنا فاست غير زوجة
فى البيت للطهو وترتيب الفراش ، وانتظار أملى لا يأتى
وفارس مات منذ زمن .

الزوجة من وجهة نظر الحاج شهدى ، وكثيرين من
أمثاله ليست فى البيت غير متاع .. كالكرسى وكالمذياع ،
كالنافذة والموقد والسجادة والسرير والمنشفة ، وإذا ارتفع
مستواها فاشتغلت وتكلمت وأنبأت بشئ ما فليس أعلى
من مستوى خادمة ، وإذا ارتفع مستواها أكثر ، فيمكن
أن تغسل قدميه وتدلكهما من تعب النهار وضغط الحذاء ،

وتتعد له القهوة أو الجوزة أو تدغدغ له ظهره الذى تبدم
وتتقدم له الدواء للصداع وغير الصداع .. من دوشة المصنع
وتكره الكلام مع العمال والزبائن .

واظل افكر طيلة النهار فى الفارق الكبير بين عمرينا ،
وكيف برضى اب ان يقدم ابنته ، لحمه ودمه وعرضه وضناه
كاشاة الى شيخ ، لياكل لحمها ويمصص عظمها ، وهو
خمسة عشر عاما ، جريمة فى حق المجتمع لها نتائجها
الوخيمة .

الم يعلم بأن كل زوجين يزيد ما بينهما من سن عن
قطرات الحياة ..

يعلم ان الفارق بينهما كفىل بان يصفى دمها ويمتص منها كل

الافكار تختلف عن الافكار ، وكذلك النوازع والمشاعر
والامال ، الرؤى .. الملابس والانواق ، كثيرة تلك
الاختلافات التى تفرق بين الاجيال ، وخاصة فى هذه الايام
التي يتغير فيها العالم كل ساعة .

كان الملل قد لحق كل مشاعرى والتصق بكل تصرفاتى
بكل نظراتى ، وغلب السأم على كل مظاهر حياتى .

كلما اقترب منى زوجى اشم له رائحة كريهة فانتسم

رياح الهرب منه ، وأفلت فعلا بعد أن أريت على ظهره أو
على خده في ابتسامة مضطئعة .

أذكر أنى كنت أقدم له كوبا من الليبون ، فها كسدت
أناوله إياه حتى استدرت ولم يكن قد أطبق يده على الكوب،
فوقع عليه الليبون وتحطم الكوب وتبعثر الزجاج فى كل
الأنحاء ، ونظر الى نظرة عتاب لا لاهمالى ، ولكنهما
نظرة تقول بكل صراحة

— لماذا تهربين ! .. أنا متأكد أنك تهربين .

وضحكت ضحكة شوهاء : آسفة يا حاج
وانحنيت على ملابسه أنظفها ، وامسح البلاط والنقط
الزجاج ، وأنا احس نظراته تندس فى ظهرى وتكوى قفاى .

لم اكن اريد أن أخرج شعوره أو أهمل خدمته ، كى
يسخط على ويطلقنى لا .. ولن يفعل ، فهل سستشعن عود
ثقاب مبلول ، وهل ستقدح الثقاب فى حجر تفتت ، لذلك فتقد
يأسيت ولم يكن لى ملجأ غير الصمت والبحث عن حياتى
فى الاحلام .

أنا لا أستطيع أن أنافقه ، فكيف أنظاھر بالرضا وأنا
غير راضية .. ليقطنى فلن أقول له احبك كما طلب منى

عدة مرات ، لن أقول له انت حياتى او ربنا بطول فى
عمرى .. محال .. محال .. قاتلى مرة :

— هل تحبيننى ؟

— انت زوجى

— اريد ان اعرف

— تعرف ماذا ؟

— هل تحبيننى ؟

— الا تحب الزوجة زوجها ؟

— انا أسالك انت

— الست زوجتك ؟

— نعم .. ولكنى أسالك

— عن اى شىء

— هل تحبيننى ؟

— وهل انت تحبنى ؟

— نعم

— فكيف لا اكون مثلك .. الانسان يتلقى مثل
مشاعره الحقيقية

ماذا أقول وهو يحاصرني .. هذا أقصى ما أستطيع
قوله . وإذا جاء موعد النوم ، فأما أنام قبله أو أنام بعده
وأذا تصادف لقائنا في السرير يظلمني .. ~~أسرع بقولي~~ أسرع بقولي:

— تصبح على خير

— انتظري .. أريد أن أقص عليك حكاية غريبة

— النعاس يغلبني

أول أثر الاختباء في معطف النوم كذبا ، ولا نيم هنالك
بل سهاد وأرق .. وكيف أنام حتى لو خالية البال ، وشخير
أعلى من صوت الآلات في المصنع ، ورائحته التي تجمع بين
روائح متعددة .. الجير والاسمنت مع السجائر والمخدرات
والشاي والقهوة ...

كنت أتحاشى حديثه وأتلاشى ~~لغائه~~ ، وكلما زادت
معرفتي بالعالم الذي يبعثته الناس ، زادت كراهيتي لهذا
الزوج الملنصق بي ، ولا يريد أن يتزحزح عن الدنيا قبل
أن يسفنزف كل خيرى ، ولا يريد أن يتركنى قبل أن يجنى
كل نهري ، وما أكثر ثمرى الذى يسقط عطا ستزروه الرياح
يوما ما .

ان قلبى الذى لم يعرف غير الحب قد تعلم الا كيف
يحقد ، عرف الحقد ومعناه واسبابه واثاره ، وشعور
الانسان به وضيق صدره بما فيه .. ساعتها يحلو القتل
ويلذ الانتقام ، وتطرا على الذاكرة بسهولة وفي الطراد كل
الوسائل التى تروى الظما ، وتشفى الغلة وتريح القلب
وتحقق للنفس استقرارها فى عالم الاحياء .

الا يكتفيه مهانة لى وطغيانا فى امتلاكى ، وتقصيرا فى
حقى انه حرمنى شعور الامومة ، الا يكتينى هذا كى احقد
عليه . الا يكتيه ائى فقدت معه كل شئ ، فقدت الرجل
كظهير وسند ، وفقدت الحب كغذاء ، وفقدت الولد كـمعنى
خالد من معانى الحياة ، وفقدت المال كوسيلة للعيش
والبهجة .

المال .. لطالما فكرت فيه ، فقد يحقق لى ما افقده
من الراحة والاستقرار او يطمئنى اذا ساءت الاحوال ، بل
اذا تحسنت الاحوال وشاء الله له ذهابا وغيابا .

قالت لى امى مرة حين دفعت اليها برايى فى شحه
وحرصه ، ودقة حسابه

— لا تستغربى هذا منه ومن غيره ممن كانوا فى
مثل سنه فلا حياة له بدون المال ، فاذا افلس . لفظه

الخلق اجمعون ، والقوه ضمن ما يلقون .. ان المال حمايتهم
حتى لا يضطروا للنوم فى الشوارع العارية ، الخالية من كل
ابتسامة او كلمة طيبة ، ولكن علينا الا ننكر انه طيب ~~مهم~~ .

قلت لها : انها طيبة سوداء .. طيبة غير محببة ولا مهذبة
واللجنة على من يتسم لى وهو يلوى ذراعى .

* * *



عند احسان الخياطة التى تقيم فى الشقة المقابلة رايته
 جاء ليأخذ أخته التى تساعد احسان .. شاب مفعم بالحياة
 عيناه تشرقتان بالامل ، انفه المديب يعلن للناس فى شمم
 ان له غاية وهدفا .

سلم على وعصر يدى ، دس نظراته فى عيني ، فاذا
 انا أهتز وأسلم وأهبط فى أعماقى .. من أين تفجر هذا
 الينبوع فجأة ، طافت عيناه بكل ما فى جسدى ونفدت الى
 روحى .. فتشئت فى ماضى وحاضرى ومستقبلى .

هو ليس وسيما ، ولكنه رجل ، عيناه هما المشكلة
 التى تمنعنى من أن أتف على بعضى .. مازال يحدق فى ..
 دق قلبى .. وحدتتى نفسى بأن هذا اللقاء العابر لن يمر
 مروراً سطحيًا بل سيكون حكاية ما ، وسيصير ذا اثر بالغ
 على .

لم استطع المثل امامه أكثر من ذلك ، دون كلمة ،
 سألنى وأجبت ، تحسس جسدى ، عرف كل شئ ، أحس
 بكل متاعبى ، انصت لدقات قلبى .. أدرك ما يعنى فى
 جوانحى وما يتلثم به لسانى ، وما ينشفل به عقلى . قال:

- .فرصة سعيدة ياغندم

ماذا .. انه يكلمنى .. صوته يجلجل فى الشقة، يغير
لونها ويعيد طلاءها.. ماذا اقول ؟ انطلقت من شقة احسان
دون استئذان ، اصطدمت بالجدران وانا اتلفت فى رهبة
كأنى وجدت القاتل ، ولكنى لا اجسر على الامساك به
.. ~~فكرت~~ اين الشجاعة للدلاء بالشهادة ضده ، ~~فكرت~~ ..

لم يقر لى قرار داخل الشقة ، وجيب القلب لا يتوقف
انفاسى اللاهثة لا تهدأ ، احس انى سأتزوج بعد بقبائى
عائسا عشرات السنين . ~~فكرت~~ اخيرا من يخطبنى ، كل
العيون تحديق فى ، تذكرت انى لم اغلق باب الشقة ، اسرعت
كأنى اخشى ان يدلف منه ، يبدو جسورا لا تمنع ارادته
الاسوار او السدود ولا ترده جيوش .. انه عيار ، محتاج
مقتحم ، والسر فى عينيه .

كسر الكسكوت القشرة وخرج يدلك عينيه ليطل على
الدنيا .. لمحت ثوبا فى السماء رأيت منه الله ، واشرق
النور فى البيت والنوافذ كلها مغلقة ، اذا كان الاوان قد
آن كى انعم بالسعادة فيتعين على اقتناص الفرصة .. ~~فكرت~~
دق الباب . لاحتضنته على الفور ، واذا دعائى لاجبته
واذا نظر الى لجذبه من ذراعه وقلت له : اين كنت ، لقد

تشققت الارض واحترق الزرع .. سأقول كل ما أريد وما
أتخيل انى أريد .

قلبي يسرف فى حديثه عن الفرصة المتاحة ، ما هذه
الثقة بالنفس وبالأمل ... عليك يا نفس بالاستعداد
فالسعادة تطل من باب يفتح فجأة ثم يفلق ، فامتص منها
قدر ما تستطيعين ، أروى عطشك وانقمى غلتك فهو
الينبوع الاخير .

أعتقد أننى حتى لو كنت واهية قد غدوت كائنا آخر ،
لا .. ليست هناك أى ومضة من شك فى انى مودمة على
حياة أخرى غير هذه الحياة التعسة ، وعمرا اغير هذا العمر
السقيم ، وسأستبدل نفسا بهيجة غير هذه النفس الكئيبة
تراكم الليل على المدينة ، لكنه ليل جميل ، محبب
الى النفس ، وأنا فرحة بلقائه ، سأخبىء فيه أسرارى
الجديدة التى أخشى عليها من العيون والأذان .. النجوم
تتبادل أماكنها فى السماء كفرقة باليه ماهرة ، تحس تماما
بالدور الذى تقوم به .. أنا لا أعرف كيف أصلى لله وهو
وراء كل عمل رائع لانتقاذ البشرية .

رنوت للسماء بعينين سعيدتين تخالطهما دموع برعية .

عاد الحاج شهدي ولح وجنتى المبللتين ، تطوف بهما
رائحة الحزن المجهول

- مالك ؟
- لا شيء .
- تبكين !
- أبدا
- الدموع في عينيك .
- اشتقت لأمي
- وهل أمنعك عنها ؟
- اذن انت موافق على ذهابي اليها .
- بالطبع
- شكرا يا حاج
- انت تجهلين تماما مقدار غلاوتك وغلاوة اهلك عندي .

- لا اجهل يا حاج ، اننا نعرف شعورك نحونا

لا أدري كيف أحسست بالرضا لرؤياه، تخيلته شخصا آخر أو ربما هذه هي الحقيقة .. هادئا ، مريحا ، طيب الكلمات ، ليس منفرا ككل ليلة ... ابتسمت له وتحركت في خفة ، فلم أكن قد أعددت طعام العشاء بعد .. ضاع

منى الوقت وسقط كل شيء من حسابى وفكرى .. قلت
بكل فرحة وبكل صدق :

— آسفة يا حاج شهدي

— لماذا ؟

— لانى لم أعد العشاء ، وأطالبك بالصبر قليلا حتى
أعد طعاما لم تأكله من قبل .

— أحقا ؟

— أنك تستحق أكثر من هذا

— الله .. الله .. ما هذا الشهد الذى يسيل من فمك

— أقل مما يجب .

— ماذا أكلت اليوم وماذا شربت ، أطمعيني مما
طعمت ، وأسقني مما سقيت

— الا يحق لى ان أشتاق اليك ؟

— أنا فى حلم أم فى علم !

— فى علم يا حاج

— تعالى هنا

— بعد ان تغتسل

— لن أغتسل .. فالحياة فرص

— عندك حق .. الحياة فرص ، ولكن عيبك أولا
الاغتسال ثم العشاء ثم .. التفاهم .

— اعكسيها .. التفاهم ثم العشاء ثم الاغتسال

— أرجوك يا حاج .. لا تفسد على الليلة .. أنا
مزاجى رائق ، أريد أن أصنع لك عشاء شهيا .

وافئت منه ضاحكة .. سعيدة بما أنا فيه، لم تزعجنى
لمسات يديه .. أحسست كأنى بيانو مشحون بالانغام
الحالة والإلحان الرائعة ويحتاج إلى لمس الأصابع لى
تخرج منه هذه الإلحان الخالدة ... قال :

— على كيفك يا جميل .. افعل ما بدالك

شويت لحما وأحطته بالخضروات النيئة ونصف
المسلوقة ، وقطع الطماطم مع بطاطس مقلية وجبن رومى
ومجموعة من المخللات التى أجيد صنعها ، وحساء باللحم
المسلوق وهو يناسبه .. وضعت المعالق والشوك
والسكاكين فى فوطة بيضاء نظيفة وقلة ماء بارد . قات لـ :

— تفضل يا حاج .

قال : هذا الطعام بشكله الجذاب لا ينقصه غير
زجاجة بيرة باردة جدا ، ولو اننى تركتها منذ زمن .

— سينزعج الاطباء لهذا التجاوز ، ومع ذلك فلو كان
هناك من يبيمها الان قريبا منا لاحضرتها لك ، أليست
اللحظات الجميلة نادرة ولا تدوم حلاوتها لاحد ..

أقتحم الحياة وليحدث ما يحدث .
لقد اكتشفت روجى الضائعة فى مهاوى الشيخوخة
وظلام القبر ، وقبو الجمود .
الفيت نفسى اخيرا ملقاة تحت ركام الجدران المتهدمة
.. تركنى اهلى هناك ، وأسرعوا يلحقون بأنفسهم .. فما
لحقت شيئا ولا لحقوا ..

— كللى

— شبعانة

— لابد ان تاكلى

— انه بيتى وطعامى ولا ترغمنى عليه

— كيف اذوقه بدونك

— أرجوك لا تفسد الليلة ، ودعنى أفرج عليك وانت
تأكل فى نهم ونفسى مفتوحة .

فى هذه اللحظات التى أرى فيها زوجى يرتفع وينخفض
لكلامى ، يشتعل حبا وفرحا ونشوة يتمنى أن يشربزجاجة

من البيرة مرة واحدة كما كان يفعل في صباه ، أحسست أن
الرجل مثلئ أسير .. فوجيء بخفئة الحب تجتاح قلبه ..
بهرته الشعلة التي تاججت فجأة في روى ، تحمل له الهناء
والمتعة ، هو أيضا يحتاج إليها مثلئ لكن من أين ؟

أشفقت عليه .. لت نفسى على جفوتى معه .

اكلنا وقمنا للنوم واصطك فكاه وأنا أحس ولا أحس،
وكيف أحس وأنا سابعة في عالم آخر ، أضحك وأتهته دون
أن أعى ما أسمعه .. أنا هناك أنتظر الفجر .

ثم سقط شهدي في معركة الحياة مدرجا بعرقه ، بقايا
أنفاسه تمزق صدره وترفعه حتى السقف ، وتهبط به الى
قاع السرير ، ولا يبقى له الا أعصابه المفتتة ، ووجهه
الشاحب وسيجارة في فمه تزيد كحة وسعالا .

استيقظت قبل الشروق متلهفة للصباح ، متلهلة
بسامة ، أشعل الامل حرارة في جسدى وأجرى الدم في
عروقى ، فتحت باب الشقة طيلة النهار واصخت السمع .

فتحت نافذة الغرفة المطلة على الشارع ، ووقفت فيها
ساعات طويلة ... لم يمر ولم يلح لى طيفه .. أين أنت
يا من ألقيت البذرة في قلبى وذهبت .. ألا تعلم أنها تحتاج
الى الرى والرعاية .

ذهبت الى السيدة احسان وجالست أخته ، اخذت
أسأل عنه بشكل خفى والفتاة ترد دون وعى .

مضى النهار كله ثقيلًا دون أن يظهر ، وكذلك مضى
اليوم الثانى كله ثقيلًا وكثيبًا .

اذن فقد كان حلما ، كان وهما .. كان أملا يداعب
البائسين ، فالجوعان لا يحلم الا بالخبز ، كان سرايا يصبر
لمرآه الظمأى .. يكفى كل هذا الانتظار ، انتهت اللعبة التى
زادت تعاستى وحركت مكامن ثورتى .

فى اليوم الثالث فوجئت به على باب شقتى فى الحادية
عشرة صباحا ، وكان الباب مواربا .. أسقط فى يدى ،

تحسست ما تمرى من جستدى ، داريته ووقتت بعد أن
تفلت فى صدرى علامة المفاجأة .

— أنا آسف .. لقد طرقت الباب عدة مرات ولكنك
لم تسمعى .

—

— لم أقصد ازعاجك .. أردت السؤال عن السيدة
احسان الخياطة .. طرقت بابها فلم تفتح .. هل خرجت أم
أنها بالداخل ؟

— ربما خرجت الى السوق .. كنت معها فى الصباح
— يبدو أن أختى معها .
— يمكن أن تنتظرها .
— أريدها فى امر هام .
— اذن تفضل .

تقدم الى الردهة ليجلس ، تذكرت زوجى فقلت له :

— آسفة .. ليس هنا ، سأفتح لك شقتى .. معى
مفتاح شقتى ، فهى لا تسمع وقد اتفقت معى أن أسأل عنها
وافتح بابها اذا طال غيابها .

فتحت له وأجلسته .. عدت الى شقتى فأغلقتها
ودخلت مطبخ احسان لأمده كوبا من الشاى .. جلسنا

نتحدث .. جذبتنى اليه نظراته ورقته وهدوءه ، وطريقة
نطقه للكلام وثقته بنفسه .. تمنيت أن تكون احسان قد
سافرت خارج الجمهورية .. أريدها أن تغيب الى الابد ..
سألنى عن اولادى ورفقتى فى السكن .

— ليس عندى اولاد .. أعيش وحدى مع زوجى
صاحب مصنع بلاط السويس .

— الا تضيقين بالوحدة وزوجك طيلة النهار فى عمله .

— بل أضيق .

— هل تعرفين القراءة .

— نعم .. لقد حصلت على الابتدائية .

— اذن فعليك بالقراءة .

— ماذا اقرا .

— هل احضر لك كتباً .

— ليتك تفعل .

— ابدئى ببعض قصص الانبياء البسيطة وقصص
تاريخية لكاتب مشهور اسمه جرجى زيدان .

— يدى على كتفك .

— المهم الارادة .

— اتمنى أن اكون مثقفة ، طريقة المثقفين فى الكلام
جذابة .

— لا ثقافة بلا قراءة حتى لن يعمل فى المنجم او فى
الحقل او فى صيد السمك .

— القراءة اذن اساسية .

— اننى ارى لكل من لا يقرأ ، واعتبره مريضاً يحتاج
لعلاج عاجل .

— وانا مريضة .

— وانا طبيب اذا اردت .

— متى يبدأ العلاج ؟

— لقد بدأ بالفعل .

— ستقتلنى لحياة جديدة .

— القراءة وحدها ثورة .

— وما دخل الثورة الان ؟

— الثورة بمعناها العام تعنى التغيير للاحسن وبشكل

جاد . . . وهى فى متناول اقوياء الارادة فقط ، اها الضعفاء

مقولى عليهم يا رحمن يا رحيم .

ظهرت السيدة احسان واخته سهام فى المدخل . . .

وبعد السلام والتحية استأذن طالبا سهام فى امر هام ،

واسرعت اسأله قبل ان يذهب وتضيع منى اخباره .

— متى ستحضر الكتب ؟

— غدا عصرا .:.

— ولماذا لا يكون اليوم عصرا .

— لا بل فى الغد ان شاء الله .. المهم الـ .. قولى
.. المهم الـ

— الارادة .

— برافو .:.. سلام .

اصر على الموعد الذى حددته ، كنت اريده اليوم ، ولم
أكن اريد ان اقرا قصص الانبياء ، اريد ان اقرا قصص
الحب والغرام ، قصص الرجال والنساء حين يعصف بهم
العشق الدامى .. ليست القراءة هى المراد .. المهم
رؤيته .

* * *

جاء الغد وجاء العصر ولم يحضر .. انتظرت على
مضض حتى الغروب ولم يحضر ، علمت ان سهام ايضا
لم تحضر منذ أخذها بالامس .

لقد نفذ سحره فى بدننى وحياتى ، وسكب فى فمى بعضا
من رحيق الحياة واستمعنى بعضا من اغانيها ، الكلمات
نخرج من فمه الحانا وحكمة ، شعرا وفلسفة ، نارا ونورا .

في صباح اليوم التالي ونحو العاشرة والنصف دق الباب وفتحت .. أنه هو .. جاء ، حدثني لحظة بنظراته ثم قال :

— عذرا فقد كانت الوالدة مريضة وشغلنا باحضار الاطباء والدواء

— ماذا بها .. الف سلامة
— أعصابها تعاني من الإرهاق

حدثني عن العقول المحدودة التي ركبت ، وغرقت في الكسل والنوم مدة طويلة .. لذلك لا تطبق التفكير ولا تطيل التأمل .. أصبحت مقولهم كالسيدة السهينة التي لا تبرح الحشايا اللينة ، لا تستطيع الحركة .. ارتحت لانه قال اننى لست وحدى التى لا تقرا ، هناك مثلئ الكثيرين والكثيرات ، وان الذى لا يقرأ ولا يهتم بالاطلاع على جمال الحياة ، ويلتصق دوماً بهاديئاتها هو مواطن مستهلك ، لا يعرف التخيل والتخليق والابتكار . وكل من كان هذا دابه ومنتهى امره هو مالة على غيره وعلى بلده ، ومالة على الله الذى يهب الارزاق والمنح والعطايا للجميع ، حتى الذى يعيش عيشة البهائم ..

سألته وأنا أغالب ضحكا عاليا :

— الا ترى أنك جاد أكثر من اللازم

- هذا فى رايك فقط
- وانا متاكدة انه راي زملائك
- بعضهم
- الباقى يكتيك رايه
- لا باس .. وهل الجدية عيب ؟
- لا .. لكنّها تبدو قاسية
- هل ابدو غير رقيق ؟
- على العكس
- كل ما هناك ان النساء لم يتعودن مثل هذا الحديث ، وهذا عيب كبير فيهن ، فهن خائبات لانهن يساعدن الرجال على تحديد مجالات حديثهم اليهن .
- النساء لا يحتملن الجد
- بالعكس .. ان المرأة تحب الجد اكثر من الرجل
- ما الذى ادراك ؟
- مواقف كثيرة اقدم لك اقربها الى نفسك .. هل تعتقدين ان الرجل اكثر جدية فى الحب ام المرأة ؟
- المرأة طبعا
- وهل تعتقدين ان المرأة اكثر جدية فى تعمير البيت ام الرجل ؟

— المرأة طبعاً

— فى أحوال كثيرة تكون النساء أكثر جدية ، وإن بدا
منهن غير ذلك ، فإنه الدلال والدهاء .

— رأيك غريب .

— تخيلى أن يتكلم الناس بجد ويحبون بجد ويعملون
بجد .

— ويضحكون بجد ويلعبون بجد

— نعم .. عليهم أن يضحكوا بجد ويلعبوا بجد

— كيف هذا ؟ ..

— الناس تفهم أن الجد يعنى التكشير ، والجد فى
الحقيقة معناه الاخلاص والمثابرة ، ألم تتفرجى ولو صدفه
على مباراة أجنبية فى كرة القدم أو الملاكمة .. أهذا
لعب أم عمل ؟

— لعب

— هل يأخذه الاجانب مأخذ الهزل أم مأخذ الجد ؟

— انهم يأخذونه بمنتهى الجد .

— أرايت .. وهو لعب وتمثيل ورقص وغيره ..

— هل يمكنك أن تخفف من جدتك قليلاً

— عفوا .. نسيت نفسي .. يكفى ما أخذتهم وقتك
وها هى قصة عن سيدنا آدم وبدء الخلق فى ثلاثين صفحة
حروفها كبيرة .. اقراها بتمهل واسألينى عن الصعب .

— أسالك عن الصعب وتجيبنى

— طبعاً

— أنت

— مابى

— صعب

وضحكنا

— تصورى لا اعرف اسمك

— أشجان

— اسم جميل

— والنبى !

— وحياة سيدنا آدم

وضحكنا .. وذهب وخلفنى أغزل الاحلام ، وأردد فى
صدرى أغنيات الحب والامل .

بدأت أقرأ قصص الانبياء ، وهى قصص مبسطة وخفيفة .. أدركت بعد فترة انها مؤلفة خصيصا للأطفال .. أطفال أطفال ، المهم انها أضافت الى اشياء كثيرة كنت أجهلها ، وأحسست أن هناك كهونا مظلمة فى راسى يشع فيها الآن ضوء ساطع ، وأسئلة كثيرة تلقيت الإجابة عنها ومازالت هناك أسئلة أخرى عديدة .

قرأت بعدها قصصا أخرى عن العظماء والمشهورين عبر التاريخ .. بالإضافة الى الخلفاء الراشدين وبعض أصحاب رسول الله « صلى الله عليه وسلم » ثم قرأت قصص جرجى زيدان التاريخية واستمتعت بها . وقدم لى جابر بعد ذلك عددا من القصص البوليسية ، تتضمن أحداثا مرعبة ومواقف عنيفة ساعدتنى على ازجاء نراغى .

تلقيت كل ذلك وغيره خلال لقاءاتنا التى تعددت حتى كانت فى بعض الاحيان شبه يومية ، ولقد منحتنى هذه القراءات نورا أضاء لى دروبا مجهولة ، واتاحت لى من المعرفة ما لم يكن متاحا ، وافتحت لى مجالات عدة لتشغيل ذهنى ، وتسلية نفسى وانطلاق خيالى ، وارضاء بعض ما يخالجنى من المشاعر والاحاسيس الغامضة .

برغم هذا فقد كنت أشتاق للحظة واحدة أخرى
أقضيها معه ، وأتمنى أن المحه بعد أن يودعنى ، وحين
يذهب كنت أسرع الى أخته ستهام عند احسان الخياطة
أسأل عن أمور تضطرها للحديث عنه .. عن نومه ويقظته
ونهاره وليله وطعامه وشرابه .

وحيث كنت ألقاه ويجد أن لدى هذه المعلومات التى
يفاجأ بها عنه يدهش لاهتمامى الشديد به ، وبالرغم من
ذلك فقد حاول ألا يتصاعد بعلاقتنا الى درجات أعلى أو
يهبط بها الى أعماق غائرة .. بل كان حريصا على أن نظل
فى لقاء روحى رقيق ، لا يتعدى حدود لمس الأيدي والحديث
وركوب اللذات فى البحر .

كان يمشى البحر عشقا أغاره ، وينهيم به هياما يحرك
حقدى على البحر .. وكانت له فيه صولات وجولات ..
سباحة على كافة الجوانب ظهرا وبطنا وفراشة وغوصا
للصيد ، وغوصا للتمتع بالمساء .

قلت له مرة ونحن فى عرض البحر وكان يوما مشهودا
من أيام حبنا الكبير :

— أود أن أتبعك الى نهاية الدنيا

— هل أنت من أتباع تورجنيف ؟

— من ؟

— انه كاتب روسى كان يقول .. أن كل فتاة تحب رجلا عليها أن تتبعه الى نهاية العالم وتترك كل الدنيا

— نعم أنا من أتباعه ، وسوف أتبعك الى نهاية الدنيا

— بل أنا الذى سأتبعك فتحملنى الحاحى

— ليتك تكون لحوحا .. عيبك أنك ثقيل

— أنا ~~أنا~~ أخف من الريشة

— فهل تفكر فى ؟

— أنت ~~أنت~~ نقية طاهرة الروح

— اذا فكرت فى أى لحظة من الليل أو النهار أن تلتقانى

فتعال ولا تأبه بأحد .. ~~أنا~~ أن أكون مجنونة

— وأنا كذلك ~~أور~~

— سوف أغير حياتى كلها من أجلك

— لا تحاولى تغيير حياتك .. اندفعى فقط فى اتجاهى

واهتمى بحبك

— هناك ما يمنعنى

— لا تهتمى .. ارتفعى فوق الاشياء واتبعينى

كنت استمتع جدا بركوب اللنش فى خليج السويس .

وندور هنا وهناك حتى تبلغ بعدا ، تخفى الجبال الداكنة
معه ابنية المدينة ومعالمها

الشمس فوقنا تلمعنا لسعات حنوز .. تود أن
تقول : ماذا تفعلان أيها الشقيان ؟ اتحسبان أنكما وحدكما .

أخلع الجاكت فيتعري كتفay ، وتتجلى ضحكات
السعادة على محياى كلما صفعنتى قطرات الماء ، وأتفهه
كلما قال نكتة أو تعليقاً فكها .

على صفحة الماء الهادر وفي أفق مغمم بالنسور ،
مضى القلب السعيد يرقص متهللاً ، اذ يطفى هذا القدر
من الهناء في وجود الشاب الذى وهبه الله لى بعض الوقت ،
ليؤنس وحدتى ويبدد وحشتى .

في احدى المرات كنت أنظر وأنا في اللنش مع جابر إلى
سمائنا السويسية ، وهو هناك يمسك بالدفة ويفتح صدره
للبحر .. تعجبني زرقتها وخلوها من كل ما يعكر الضفوف
سألت نفسي .. هل يدوم صفاؤها ؟ أجابتنى : ولم لا
يدوم ؟ قلت لها وعلى ملامحى سهوم : لا شيء في الدنيا
يدوم ..

أيقظنى جابر من شرودى بسؤاله :

— أين كنت .. ؟ ليس من حقك أن تفكرى وأنت معى

- كنت افكر فيك
- لا تفكرى فى وانا معك
- افكر فيك فى كل وقت
- التفكير ليس لعبة فى يد البشر .. ليس كل شىء جديرا بالتفكير
- اخشى الفراق
- الفراق كالموت ياتى فجأة ولا يجب أن نفكر فيه ، ولا نحزن كثيرا اذا اطبق علينا
- سيقضى على سعادتى
- تبسكى بالامل فهو روح الحياة ، لو خلت الحياة من الامل كان موتا وذبولا
- لا أعرف الياس معك
- لكلك تعرفين التلق
- أنه الخوف
- الخوف سببه قلة الايمان . . يجب أن نؤمن بالله وبوجود الخير
- الحمد لله

فجأة ترك الدفة ، وأوقف المحرك وأسرع الى
مجدبني ~~الى الأرض~~ كأنه يخشى على من شظايا قنبلة انفجرت
قريبا .. أخذني بين أحضانه فاستسلمت له دون أن أفهم
ماذا يحدث

— أشجان .. هل تودين أن نبقي هنا معا ؟

— نعم

— الى متى ؟

— طول العمر

— العمر ساعة

— ليكن

وضمني أكثر فعصر اكتافى وضلوعى ، ثم خفف ذراعيه
عن صدرى فالتقطت أنفاسى .. واطل فى عيني يتأبها :

.. كلما فكرت أن احتضنك خفت أن أنشغل عن عينيك
وأنا لا أحب أن تفوتنى نظرة من نظراتها

لم ارد على هذا الولد الشقى .. ماذا أقول له ؟ ..
طائرة أنا كالعصفور فى فضاء لا نهائى وردى
جميل .. قبلنى وقبلنى وقبلنى ، لم أدر ما كان من امرى
بعد ذلك ، الا ان جسدى تخدر تماما وبدأت لا أعى بالضبط
ما أقول ، أو لملنى لم أقل شيئا ، ولعلنى قبلته أو لم أقبله،

ولعلى قلت لها حبيب الروح ولعلى لم اقل ، ولعلى حاولت
ان اضمه الى صدرى ضمة اقوى من ضمته وربما لم افعل .
قضينا نحو ساعة هي العمر .. وأنا ااهله مذهولة
قاتلة مقتولة .

انفتت بعدها فاذا ثيابى هنا وهناك ، ولكنى لا استطيع
جميعها . انظر اليها كأنها اعقاب السجائر .

انفتت الى الجبل الذى يقف خلفنا كالجدار يحينا ..
احسست أنه يرنو الينا بوجه عابس ، تماؤه التجاعيد
والنتوءات ..

كانت هذه اول مرة منذ عرفت جابر ، نهبط فيها معا
الى قاع اللنش ، وكما كان احساسى باللذة غامرا فى هذا
القاع .. حلاوة لم يسبق لى تذوقها ، وان كانت الظروف
لم تسمح بالهبوط اليه بعد ذلك غير مرتين ، وسمحت كثيرا
باللقاء فى البيت .. فى حجرة النوم الداخلية ، لانها تطل على
مسطح النور الذى يفتح له باب تحت السلم ، يفضى الى
مدخل العمارة .

كان جابر يبدو مشغولا رغم علمى بأنه كان ينقطع برغبته
عن عمله أحيانا ويفصلونه منه أحيانا ، لتدخلاته فى غير
شئونه ، او لاقتراحاته الجديدة وخلافاته مع رؤسائه . كان
يوزع وقته بينى وبين البحر وصديقه فتحى فريدة الذى

10. 11. 1941

الربط بينها وبين القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِثَ فِي قُلُوبِهِمْ الْوَيْبَةَ ﴾

كما يوضحها قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى سَائِرُ الْأُمَمِ الْأَنْبِيَاءَ ﴾

2

1 2

— مثل السياسة والحرب

— أى سياسة يا رجل ؟

— سياسة الحب يا جميل

بدأ يمسك القافية كما يسميها أبناء البلد ، على موضوع السياسة والحب وعلاقتها بجسدى ويضحك حتى يقع على ظهره .

— صدرك هذا هو الطليعة وشفتيك هى فرقة القناصة ومؤخرتك هى الفرقة المدرعة وهنا المطار .. وهنا وكانت ليلة من الليالى التى لا ينسى أن أنساها وهى ليلة الخميس .

كان الحاج يذهب كل ليلة خميس للمبيت عند محظية زوجته الاولى ، بعد صرف رواتب العمال والسهر قليلا على المقهى ولا يأتى الا عند غروب شمس الجمعة .

كانت كل لحظة تمر به تحمل مزيدا من اللهفة الى جابر . ولم يكن انشغالى بعمل من اعمال المنزل ليصرفنى عن التفكير فيه تفكيراً روحياً عذرياً ، ولا اظن احدا يصدق اذا قلت اننى لم أكن اشتاق الى عناقه ولا الى صدره وذراعيه ودفء جسده أبدا .. لم يطف بخاطرى شئ من ذلك على الإطلاق .

كان تفكيرى يشدنى اليه أو هو الذى كان يشد تفكيرى اليه ، فأهفو بملء اعماقى ومشاعرى الى أن أسمع

صوته يأتيني .. ينفذ مباشرة الى عقلى وروحى وقلبى
فبهزنى إيقاعه وتؤثر فى أفكاره .. تحرك راكدا ميساهى
وتسقط من حياتى ثمارها الفجة وأوراقها الذابلة .

فاذا سمعت صوته أحس انى محتاجة للنظر الى
عينيه ، أبحث فيهما عن شىء مما سمعت أو غير ما سمعت
.. ولكنى حين أرنو الى عينيه أحس انى أود أن المس يديه،
أتحسس دفئهما ، أفتش عن عروقهما ، عن شعيرات بعضها
أسود وبعضها أصفر ، تشبه سلوكا ذهبية قصيرة تحتضن
بعضها وتلتف فى حنان ووثام وان لم تفتقد الخشونة .

فاذا سمعت صوته ونظرت الى عينيه ولمست يديه،
أحس انى أود أن اقترب منه ويقترب منى ، وأود أن أشرب
أنفاسه التى تعبق الهواء من حولى ، وأتصوره قادرا على
أن يصنع لى من أنفاسه شرقة أدخل فيها كدودة القز
وأعيش بها امدا طويلا .

واذا اقتربت منه واقترب منى أود لو يضع يديه على
كتفى ، أو يحيط بهما ظهري فأقترب أكثر وأشم رائحة
رجولته أكثر .. عندئذ لا أملك الا أن أضع راسى على وسادة
كتفه الرقيقة الصلبة الحنون .

وبعدما تخلو الدنيا من كل ما فيها ، ولاتبصر عينى الا

ظلال السماء وغفوة الحب تداعب اهدابي ، وتتوالى امور
وامور لم تدخل ابدأ في حسابي .

انا لم اقصد كل ما يحدث ، بل اكاد اقسم اني لا ابغيه
ولا اتويه ولا افكر فيه ، ان كل ما يحدث بعد ذلك هو
بالنسبة لى فى كل مرة ، مستقبل مجهول وغيب مستور .



برحت بزوجه آلام القلب وثقلت عليه . وبعد فحص
الاطباء اعلنوا في وضوح تام أن الحاج شهدي اذا غادر
الفراش فهو لا محالة هالك ، وهم غير مسئولين ، فلزم
الفراش .

كان نجيب ابن محظية يتولى شؤون الورشة والزبائن
وبيع الاسمنت ، ويأتى الى أبيه كل ليلة يبلغه بما حدث
طيلة النهار ، ويتلقى منه كل ما يرى من نصيح وارشاد .

لم يكن هناك بالطبع ثمة أمل للقاء جابر ، اللهم الا
باختلاق أسباب للخروج اليه ، وكان ذلك نادرا وفي أضيق
نطاق ، نتبادل بعض الكلمات والقبل متمسكين بكل احبال
الصبر ، كل منا يتمنى مخلصا لزوجه الشفاء العاجل ودوام
الصحة .

مر أكثر من شهر وأنا اتفانى في خدمة زوجي ، أقدم
له الدواء في المواعيد كما أوصى بذلك الاطباء ، وأعد له
الطعام بنفسى مسلوقا ، بلا أية دهون او أملاح ، وأسهر
الليل بجانبه أقرا .

قال مرة :

- اتعبتك معى يا أشجان .
- لا تقتل هذا يا حاج . . ان حياة اشجان كلها لك .
- لا تسرفى ولا تبالغى .
- اذن نصفها لك .
- والنصف الباقى .
- ائتك تستكثر عمري لرجل مخلص مثلك .
- ليس المهم اخلاص الرجل بل المهم اخلاص المرأة .
- اخلاص الاثنين مطلوب .
- هل ترين هذا ؟
- نعم .

ماذا تعنى كلماته ؟ وهل يوجه الى معانيها ؟ ام انه مجرد كلام جر كلام وهو لا يدري و . . على أية حال . . اذا كان هناك جرم ما ، فلسيت وحدى المسئولة عنه ، فهو قد أقدم على زواجى مع علمه بأن عمري نصف عمره ~~الذي~~ ، لقد أجرم فى حق نفسه ، مقتصى على بالفساد والقلق والتعاسة . اننى اذا كنت الآن اسمعى بحثا عن بعض ما ينقضى ، فذلك لحرمانى طوال أهم سنوات شبابى من كل متع الحياة ، حتى الصداقة العادية لم يسمح لى بها

.. لقد اخطأ أبى وأخطأ الحاج وأخطأت معها ، فلنأخذ
نصيبنا جميعا من الخطأ .. أبى عليه أن يتحمل تعنيف
الضمير ، وعلى الحاج أن يتحمل خطاه بخطيئتي وعلى أن
أتحمل ما سألقاه .. فأنا به راضية . أن أريقى هوطريقى
بالرغم منى ومن رغبتى .. ليس اعتمادا على قولنا
أنه المكتوب والنصيب ، ولكى متيقنة كل اليقين أن الامور
تسير سيرا طبيعيا ، ما دامت قد بدأت على النحو الذى
بدأت به ..

المريض رغم سهرى لا يصحو ، ورغم الدواء لا يبرأ ،
ورغم العلاج لا يشفى ، ورغم المسال المنثور لا ينهض إلى
الحياة والعمل .. وأنا .

تيقنت الآن انى حامل .. الجنين لجابر وليس للحاج،
ذهبت للطبيب لاتأكد فأبلغنى بأنى حامل منذ شهرين ،
أبلغ الحاج بذلك امر غير معقول ، فالولود لغيره وان
كان بوجوده وفى ظله ، ولكن ابلاغ جابر امر منطقى فهو
المسئول عنه وان كنت لا ادرك تماما عاقبته او شعوره
أزاء خبر كهذا ، فربما تغلبه رهبة او يشملته سخط فيذر
منى ، حينئذ تكون تعاستى مضاعفة . أو ربما يشير على

بالاجتهاد ؟ .. لعنة الله عليه اذا اوصى بذلك فهذا محال
المحال . ولن يكون ولو صليوني او شنتوني او ذبحوني ،
وما يدريني لعله يفرح بحملي ، ويفكر في الزواج مني بعد
ان يدلفني الحاج ، ولكن هل من المقبول ان يتزوجني وهو
يصغرنى بأكثر من خمس سنوات ؟ وهل من المعقول ان
يوافق الحاج على الطلاق ؟ .. ربما يوافق اذا اعترفت
له ، وربما لا يوافق اذا اعترفت له ، فبعضهم يحب
الانتقام فلا يدع سبيلا للحرية والانطلاق ، على .. اذن .
ان اخبر جابر ، لان هذا واجبي وواجبه وحق الجنين
وحقه .

* * *

بينما كنت غارقة في بحر فكرى المتلاطم ، تأخذنى
 الهواجس كل مأخذ ، دخلت على سهام اخت جابر تدعونى
 فوراً اليه . فتملكتنى الدهشة وملأنى الرعب .. هل أتاه
 حديثى بهذه السرعة ؟ .. الشياطين تعمل بكل تنسيق
 .. ~~فكيف~~ أثرت الا افاتحه قبل ان أعرف سر دعوته العاجلة :

- خيراً يا جابر
- أريد فوراً ألف جنيه
- نعم !
- ألف جنيه
- لماذا ؟
- لا دخل لك
- الا دخل لى يا جابر ؟
- نعم .. لا دخل لك
- انا غريبة عنك الى هذا الحد ؟
- وبعدها معك .. لا تثرى غضبى

- لماذا تريدها ؟
- كلمة أخرى واذهب
- هكذا .. تصرف كما تشاء يا جابر
- النقود
- دعنى افكر
- ممكن او غير ممكن
- لا املك نقودا بالمره
- وزوجك
- لذلك قلت لك دعنى افكر
- والنتيجة
- بعد غد
- كثر
- بعد غد
- بل فى الغد .. اتفهين .. هيا
- هل ستذهب الان ؟
- نعم

— الا تبقى قليلا ؟

— لا

— جابر

— أشجان .. أنا اليوم عصبى

— قل يا حبيبى ما بك

— لقد تعاركت مع أمى

— لماذا ؟

— لهذا السبب

— أى سبب ؟

— النقود

— ولماذا تريدها ؟

— هيا اذهبى .. نفس الموعد فى الغد

مضيت فى طريقي غارقة فى اعمق المبهمة ، الجاهلة
المجهولة ، أخوض بهلاعى السوداء فى تلال الليل الحالك ..
لم يخفف من لسع افكارى غير نسيمات بحرية وهنائة ، اخذت
تداعب وجنتى وتهدىء من صراع خواطرى .

بينما كنت أسوى ملاعتي على جسد المترنح، لاحظت
لى أساوري الذهبية وتجات أمانى اقراطى وسلسلتى ..
هل أبيعها ؟

.. مستحيل .. ماذا يقول الحاج ؟ لا يصح أن أبيع
ما أهدانيه ، ثم انه سيسألنى عنها حتما ، وهو لا يغفل
عن شئ، ولا تخفى عليه خافية ، فهو رغم مرضه لا يستنكف
أن يسأل عن ابرة الوابور ، وعن الصورة المائلة على
الجدار .

يا للغرابة ! انا لا أقبل أن أبيع الذهب دون علمه ،
وأقبل أن أبيع لغيره ما هو أثمن من الذهب .. أم أن هذه
نقرة وهذه نقرة ... أم لان الذهب يملكه ملكية مباشرة
وانا لا أملكنى الا برضاى .. لا .. كل هذا لغو وتلفيق .

فيالعذاب الضمير الذى لا يدع لى لحظة أهنأ خلالها
يطعم أمانى .. حساب النفس للنفس أصعب بمراحل
من حساب الناس ..

ها انذا أقف حائرة أمام تناقضات نفسى .. مادمت
لا أستطيع بيع الذهب فهل أملك الجراة لأطلب المبالغ من
الحاج .. سيسألنى كعادته لماذا ؟ فهو يجيد استخدام

كلمة لماذا ، حتى نخفف محاولات الكذب وتتبدى الحقيقة
هزيلة تقبع في ركنها الضيق كاليتيم .

هل أقول له انها لابي ، سيقول على الفور :

— من عيني يا أشجان ، عندما يحضر أبوك سأسلّمه
المبلغ .. لا تشغلي بالك .

وافهم من كلامه طبعاً انه يصدقني مؤقتاً ، ويربحني
مؤقتاً حتى يحضر أبى ويسأله ، فاذا الحقيقة كذب واذا
الدعوى ادعاء .

يارب .. لم تنته مشكلة بقاء الحاج بالمنزل مريضاً
بقيد حريتي ويخفق أنفاسي التي بدأت في التقاطها ، حتى
داهمتني مشكلة الجنين وجبرتي بين أبيه وعمه الحاج ،
ولم تكن تبدأ مشكلة هذا الجنين ، حتى تسلمتني مشكلة
النقود التي يصرخ من أجلها جابر ..

انا أريد جابر وجابر يريد النقود والنقود مع الحاج
والحاج لا يريد جابر .. و ... لم يبق لي من حل

غير الموت ..

فياها الموت هل عندك حل ؟ ومن الذي يموت يهنأ
الباقون وينعموا .. انا أم الحاج أم جابر أم الجنين ...
انا لا أتمنى الموت لجابر ، ولا أسمح أبداً بأن يخطف الموت

وليدي ، أما أنا فأننى أحب الحياة وأدفع فى سبيلها حياتى ،
لان الموت فى سبيل الحياة أفضل من الحياة .

هل يجب أن يموت أحدا ؟ .. نعم .. يجب .. لان
القارب صغير ولن يتسع لنا جيمعا ، يجب أن يتخلف منا
واحد . سامحنا يارب .. لقد خلقتنا على هذا الشكل
المحدود وبهذا التكوين الناقص .. سبحانه هذا
أقصى ما نستطيع .

انقضى بى الليل على هذه الحال ، وتتابع فى اثره
ساعات النهار ، ما بين حيرة وانتظار ، أسأل الله أن
يلهمنى ، لكنى محرومة من الالهام ، وأرجوه أن يهدينى ،
لكن ما بينى وبين الهدى مثل ما بين السماء والارض .

اقبل موعدى مع جابر ، حثيثا لا يرحم حيرتى ،
أسعيت اليه اتقدم خطوة وأتأخر خطوات ، راسى فوق
كتفى نهبا للافكار ، تتخايل أمام عيني المخدولة ملامح جابر
وهو يخوض فى وحل غضبه وثورته .

انتهى طريقى اليه وكان لابد أن ينتهى ، فاذا هو
ينفث الدخان ويذهب ويجيء ، ضرب حصى الارض بقدم
متهتجة .. ورأى فأنفجر .

— لماذا تأخرت ؟

- لم أتأخر .. انه الموعد بالضبط
- أين النقود ؟
- لم أحمل نقودا
- ولماذا جئت اذن ؟
- من أجلك .
- أشجان .. لا تقضى على الباقي من أعصابى
- أنا بصراحة أريد أن أعرف الحقيقة
- أى حقيقة ؟
- لماذا تريد هذه النقود ؟
- قلت لا دخل لك
- اذن فلن أعطيك شيئا
- كان عليك أن تقولى هذا من البداية
- اسرع بالذهاب فعدوت خلفه وتملقت به ، واسترد ساعده بشدة .
- قلت له :
- نتفاهم يا جابر
- على أى شيء
- النقود

- نقود أو لا نقود
— كن رحيما بى
— رحمتى بك أن تذهبى عنى
— لن اذهب عنك مادمت حية
— لا أريد كلاما
— ليس عندى غير الذهب وهو ملكه
— .. أنا فى ورطة فهل تستطيعين مساعدتى ؟
— ورطة !
— وسوف تذهب بى بعيدا جدا
— غير معقول
— هل عرفتك من اجل المال ؟
— لا
— ما الذى جمع بيننا ؟
— الحب الخالص
— والآن سيفرق بيننا
— لن يفرق بيننا الموت
— والنتيجة

— لم أجد تحت وسادته مالا .. النقود في الخزانة
والمفتاح في الحافظة ، والحافظة في سلسلة بصره

— الوقت محدود

— فكرت في قطعها وهو نائم ، لكنه ينام نوم الذئب

— لن ترى وجهي بعد اليوم

— أخاف يقظته فيمسك بي ويتشاجر

— تخافين الشجار ؟

— ربما يودى به

— تخافين موته ؟

— أخاف النتيجة

— لا أمل عندي الا فيما لديك

— أعطني فرصة أخيرة

— لا مجال لفرص أخرى

— بل فرصة أخيرة

— ما خطتك ؟

— هناك خبر أريد أن أفشى به اليك أولا

— أريد نقودا لا أخبارا

— أنا ... أنا

- انته
- أنا حامل
- أنك بهذا العبث تتخلين عني
- أقسم أنني حامل
- ليس الاوان أو انه
- هل أمنع نموه ؟
- أنا في ورطة وتمزجين
- لم تفرح بالخبر !
- الميلاد يأتي بعد شهرين والموت يدق الآن أبوابنا
- ماذا تعنى ؟
- هل ندفن الميت أم نعد ملابس المولود
- دعك من الموت والميلاد وتذكر أن زوجي يريدني
- وأنا أريدك ، وأنت تريد المال والمسال عند زوجي ولكن زوجي لن يريد الطفل وأنا لن اتخلي عن الطفل
- القراءة أنت اكلها مبكرة
- لم تفهم
- بعد فترة صمت تنفست بعمق ، وبعد جهد قلت :
- ان رأسك اليوم مغلق تماما بسبب اعصابك

المضطربة .. وسوف أستيقظ أفكاري في كواب فابتلع ،
موجز القول أن العقدة حسب ما قلت لك في زوجي ..
فإذا مات سنرث ونربي الطفل وتأخذ التقود وتنفك أيمتك
ونعيش معا الى الأبد .

— ~~وإن~~ مرض زوجك ربما لا يفضي الى دونه

— ~~إذا~~ اشتد

— وإذا لم يشتد

— نتدخل بعمل بسيط يقرب يومه

— بعيدا عنى

— أذن سلام

— ~~استدريت~~ عائدة فأسرع الى :

— لم أفهم

— ألا تريد نقودا ؟

— ~~أنت~~ المصدر الوحيد

— جهد بسيط منك

— ولم لا يكون منك ؟

— لاني الوحيدة بالمنزل

-- ستلصق بك في أى حال

.. ممكن أن تدخل علينا ليلا وتهددنا وتنزع من صدره المفاتيح وتأخذ النقود من الخزانة يسار السرير.

.. هذا عن النقود وماذا عن موته ؟

— رصاصة

— ما هذا الكلام الاخرق الذى لا يفضى الا الى السجن

— فكر على مهلك ورتب امورك

حلق فى جابر فترة من الزمن ، وهو شارد الذهن ، حتى خلت أنه يفكر فى التخلص منى أنا .. ~~الكل~~ قال بهدوء وسهوم :

— طيب .. طيب

— فكرت

— سأخبرك غدا بخطتى

التقينا فى اليوم التالى قال :

— غدا فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل سأدق الباب ففتحني ، ثم أهاجمك بالسدس واتجه بك ناحية الحجرة الداخلية التى يرقد فيها ، وأهددكيا بعدم التحرك، وأخذ المفتاح منه وأنا ملثم تماما الا عيني ، وأخذ ما فى الخزانة وأطلق بعدها عليه النار بينها وجهه للجدار

— عظيم .. وبعد دقائق أعلن موته بالصوت العالى

-- تمام .. والان سلام

-- بعدها ستختنى فكيف الثاك ؟

مضى دون اجابة ، وعدت الى البيت قلقة من اقدامى
على حمل ثقل لا يستطيع حمله ، ولوجى مغامرة اكبر
من قدراتى ...

في الليلة التالية بقيت متعطشة افكر ، وافكر بسلا
جدوى ، لم أكن حزينه بقدر ما كنت متوجسة ، أخشى
الفشل فتكون الطامة الكبرى .

كنت نائمة الى جوار زوجي ، استمع الى غطيطة
يعلو لدقائق ، ثم يتوقف ليلتقط أنفاسه ثم يعود الى
الغطيط ، ينطق أثناءه بضع كلمات مأكولة لا يبين لي معناها
وكم كنت تواقه لاعرف شيئا عن زوجي ، الذي يبدو لي
كأنه يخفي سرا . . انني أحس بذلك واحساس
المرأة لا يخيب وحدها دائما مصيب . . والغريب أن
الرجال يقولون عنا أننا ناقصات العقول . . اننا اذا كنا
ناقصات عقل فمنهم الكثيرون مهدوي العقول وليس لديهم
الا التسلط والتحكم الاعمى . . الشرع يعطيهم هذه الحقوق
والمجتمع يضيف لهم حقوقا الى هذه الحقوق ، وهم يضيفون
حقوقا جديدة الى هذه الحقوق ونحن نتفرج .

قلبي يدق وأنفاسي تتوقف . . لا شهيق ولا زفير ،
أزني مشرعة تجاه كل ما يحدث في الليل الصامت ، صمنا

يخلو من كل هم أو قلق . أذنى رادار دقيق تسجل كل
نأمة قريبة أو بعيدة ، أصوات متباينة تترى كل لحظة ..
الصراصير وطقطقة الاثاث الخشبي ، وتقلب زوجي على
السريـر ، سعاله وكحته ، صوت اغلاق نافذة ، المياه
التي تجرى في البالوعة وفي المواسير .

الليل مع الميـون الوحيدة الساهرة ، ترتقب الدنيا
وتتوقع الاحداث المصرية في توتر كالجندى في الخندق ..
لباس قاس وكتيب .

دق الباب فنهضت على الفور كائى اتحرك اليكترونيا
مع الطرق على الباب .. فتحته في توجس دون ان ابصر
او احاول ان ابصر .. فانا اعرف كل شيء مسبقا والفرصة
ليست سائحة للتفرج على مسرحية مأساوية .. يجب ان
أنتبه فقد حان دورى .. دس جابر المسدس في صدري ،
وقال مهددا بصوت جهورى بدا غريبا على :

— ولا كلمة .. امسى

سرت كما أمر حتى اقتربت من باب حجرة النوم ،
زوجى الان في نوم عميق لا يدري شيئا عما انا فيه وعما
اعانيه من انهيار .. أصبحت في نصف حجى ، ارتعش كان
بى حمى ، لا يرهبنى المسدس ولكن يرهبنى ماسيلقاه النائم
أطلت داخل رأسى فكرة مدببة .. لماذا تفعلان هذا بالرجل؟

كتمت أنفاسها .. أخسى وابتعدى ليس هذا أوانه ...
ماذا يكون من أمر زوجى المسكين الذى تهدم جسده حين
يرى المسدس موجها الى صدره ، وهو الذى يخشى
النسيم وتهده البصقة ..

اصبحت أخاف على الزوج الطيب الوديع ، الذى لم
يوجه لى كلمة واحدة تسيء الى مشاعرى ، ولم يجعلنى
مرة احتاج الى أى شىء الا الى هذا الجانى .. هذا الجانى
الذى كنت أريد منه الحياة ولا أريد منه الموت .. فما العمل
اذا الموت والحياة ، والحياة والموت كلها معابر لبعضها
وكلها دروب فى حى واحد أو دنيا واحدة .

كان الباب مفتوحا فاجتزته ، لكن طلقا ناريا دوى
فهشم زجاج السكون ، انشق صدرى واشتعل قلبى ،
فصرخت وأنا دهشة لانى رايت جابر يتأوه ويتمايل ثم
يسقط على الارض ، تتفجر من كتفه نافورة دم ..

من الذى اطلق الرصاص ؟

جذبت سمعى حركة فى داخل الحجرة ، فلمحت زوجى
فى الحجرة المظلمة يكمن خلف السرير ، كانه محارب يستعد
لطلقات أخرى من مسدس مشرع فى يده .. لكنى انحنيت
أتحسس جابر ، وأنا أشعر بها يقرب من الدمار الكامل
وفى انقطع لحظات الدهشة قال زوجى فى حدة وشراسة :

— دعيه أم أنك تريدينه حيا ؟

— من يا رجل ؟

— كنت اعلم أنه قادم

— انت مجنون

تجاهلته واحتضنت جابر ، وحين رفعت لثامه تبين
لي أنه شخص آخر غير جابر ، فذعرت وفرحت وسعدت
ودهشت وصرخت وتهاست

— من أنت ؟ .. قل من أنت ؟

قال زوجي :

— قل لها من أنت فهي لاتعرفك

اذن فزوجي يعلم بأمر جابر لكنه لا يعرف شكل جابر
وقفت بجرأة أوجه له نظرات أقوى من رصاص مسدسه
ومسدسات الدنيا كلها .

— أنا لا أفهم ماذا تعنى ؟

— ستفهمين .. أمضى الان الى الاستاذ حمدي
فأيقظيه فوراً .

— ولماذا حمدي ؟

— ستعلمين

يا للفضيحة ، وما دخل حمدي ، هل يعلم شيئا ؟

مستحيل .. أنا لست مرتاحة لقدوم رجل ثالث بيننا ..
تحاملت على نفسي وأسعرت الى الدور الثاني فأيقظت حمدي
الذي تبعني على الفور ، قال له الحاج شهدي :

اتصل الان من تليفونك بالبوليس والاسعاف
أسرع وسأحرسه

أبغى حمدي ~~الرجل~~ وقال زوجي :

— لم أشأ ان أكلفك أنت للاتصال بالبوليس ، لأنك
طبعاً لن تتصلى به ، ولم أشأ ان أذهب أنا وأدعك تحرسينه
لأننى لسن أجده حين أعود

جلست وأنا شبه منهاره ولكنى راضية ، وان كنت لم
أخلص بعد من دهشتى ... ماذا حدث ؟ ومن الشخص؟ وما
علاقته بجابر وكيف عرف بالموعد وكيف وكيف ؟ ...
قلت للحاج ؟ .

— ماذا جرى لك .. أنك تقول كلاماً عجيباً ؟

— الا تعرفين صديقتى هذا ؟

— أقسم لك انى لا أعرفه .. هل تعرفه أنت ؟

— عز المعرفة

— ما اسمه ؟

-- ستعرفين اسمه بعد قليل

— تصرفاتك غريبة

— سيتضح لك بعد قليل أنا ليست غريبة .

دخلت الحجرة وجلست على كرسى بجوار السرير .
في ظلام تخف حدته بنور الردهة ، اعاود التفكير دون جدوى
جاء البوليس ، والاسعاف والناس واستيقظ الليل
يسأل

نقل المصاب الى المستشفى وفي اثره جاءت النيابة...
ولعدة ايام لم التق بجابر وأنا اشوى على جهر القلق ..
اريد أن افهم ، واريد أن اطمأن عليه ، دون أن اتبادل حرفا
واحدا مع زوجى الذى بدأ الكلام بعد عدة ايام فى محاولة
لارضائي ، بعد تأكده من أن هذا الشخص لا تربطنى به
اى علاقة .. ولو كانت لى به اى علاقة لاعترفت بها ..
غلا مجال دائما للانكار حين تكون المواجهة كاملة ، والنفس
المرتبكة قد هبطت الى الاقدام .. ساعتها تكون المقاومة من
أصعب الامور .. ولا مفر من الاعتراف ، وليحدث بعد
ذلك ما يحدث .

لكنى لم أستجب لمحاولات زوجى فى الحديث السى
وترضيتى بكل وسيلة ، لآتى لا اقبل أن يشك فى .

لم يستمر الحاج طويلا فى محاولاته فقد جمع ما بعثه
امامى من كرامته وكبريائه اللذين يضمن بهما على ابيه، وبدأ كانه

مازال يضم في صدره بقية من شك ، على شكل رماد مطفا
يمكن أن يصير مع الايام نارا جديدة .

ماذا عن جابر .. لن يجيبني عن اسئلة الدهشة
التي تثور في نفسى وتقلقنى غيره .. اخيرا حزمت امرى
وارسلت اليه اخته لتخبره برغبتي في لقائه ، لاني لا استطيع
ان ابقى هكذا معزولة عن العالم .. والتقيت به .. وفهمت
منه انه يلعب اليوم الذي عرفنى فيه ، وكذلك اليوم الذي استمع
فيه الى ارائى المدمرة التي ضيعته ، وضيعت هذا الشاب
الذي كلف بهذه المهمة ، وهو شاب مسكين كان يعمل مع
الصيادين في « الاتكة » وطرده لسوء تصرفاته وكان يعرف
جابر لتردده على الصيادين وكثيرا ما كان يخرج معهم في
رحلات الصيد بالشائشولا (الصيد على الضوء) .

جاءه الشاب يطلب مساعدة في اليوم الذي اتفق فيه
معى على الحضور بعد منتصف الليلة التالية ، ولما كان
جابر غير مقتنع تماما بالسرقة أو بالقتل أو بالعملية كلها ،
لكنه محتاج الى المال احتياجا مأساويا ، فقد كلمه بهذه
المهمة ووعده بمبلغ طيب بعد تنفيذها .

حين علم بأمره لعننى ولعن أمى التي اتجبت مثل
هذه الحشرة .. وبعد أن سب أجدادى جميعا مضى لزيارته
بالمستشفى ، ملحا عليه في التماسك والثبات ، ووعده بأن
يعوضه عما حدث تعويضا كبيرا ..

- قال لى جابر :
- أصبحت الورطة ورطتين
 - أنا مندهشة
 - كنت تريدن التخلص منى
 - امعقول هذا يا جابر !
 - معقول جدا .. المسألة واضحة
 - أسأل قلبك
 - خرب الله بيته فهو السبب
 - والعمل الان
 - نريد نقودا للضحية
 - من الضحية ؟
 - ضحيتك الذى ينام فى المستشفى
 - أنت ترى بنفسك ان الامور قد تعقدت
 - البركة فيك
 - لن اراك ؟
 - سوف تريننى سائحا فى الشوارع افكر فى أبى
 - الطيب ضحيتك الاول
 - ماذا به ؟

— نقلوه من عمله بعد أن سحب من خزانة المنطفة
الطبية أكثر من ألف جنيه

— وماذا فعل بها ؟

— من المؤكد أنه صرفها علينا وعلى المقهى

— ألم تجدوا مصدرا للسداد ؟

— لا

— ألم تقل أن والدك تملك بيتا ؟

— لم ترض بيعه وحاولت معها فلم أفلح

— أنها ورطة فعلا

— ورطتان .. بل ثلاث .. لان أبى كان يهدد بطلاق
أمى ، اذا لم تبحث له عن نقود وبالذات ان لم تبع البيت،
وسوف يطلقها فعلا لانه فى منتهى الغضب ويحس بتعاسة
شديدة ..

— أنا فى غاية الاسف

— هذا ما آخذه منك

— وما ذنبى لقد حاولت ولكن ..

مضى عنى بلا كلمة

من لا يستعد لمفاجآت الحياة في كل ثانية فسوف
تدميه عجالات القدر .. لكن كيف يستعد .. هل بالحذر ؟
وماذا يفيد الحذر ؟ اللهم مكرت .. فالايام والاقدار أمكر ،
تأتيناك من ابواب لا تعرفها ، وتنفذ اليك من سرايب تجهلها

في اليوم التالي وبينما كنت أنام في حجرة غير حجرة
زوجي ، سمعت طرقا على الباب بعد منتصف الليل ..
توقعت أن يكون جابر قد فكر في تنفيذ خطته بنفسه ليحصل
على المال .. الذي سدت دونه كل السبل .. نهضت ،
لأفتح له ، وفي اللحظة التي فتحت فيها الباب دوى طلق
ناري ، فذعرت الزعر كله وهربت الدماء من عروقي .. ولم
يعد في المستطاع غير السقوط ، لولاحب الحياة الذي يدفعني
الى الحياة .

من أين انطلقت هذه الرصاصة ومن أطلقها وعلى من ؟
إنها لا يمكن أن تكون خارج الشقة ، لا يمكن أن تكون
أبعد من أمتار قليلة .

كان الطارق هو نجيب ابن زوجي ، أكمل فتح الباب
ودخل ثم توقف وقال :

— أين أبى ؟

— نائم

— ولكنى سمعت صوت رصاص .. هل هو عندكم؟

— لقد سمعته وأنا أفتح لك .. اليس كذلك ؟

— نعم

١
تناهت الينا تأوهات ، اندفعنا الى حجرة زوجى
فوجدناه على الارض والدم ينزف من صدره بفزارة... قال
حين رأى ابنه :

— حسبتك هو

— من أطلق عليك الرصاص ؟

— وقعت على مسدسى

— ومن هو ؟

— كان موضوعا وانتهى ، سامحني يا اشجان

— المهم سلامتك

٢
أسرعت للاستاذ جمدىكى يتصل بالبوليس والاسعاف
وعند عودتى وجدت نجيب ييسط ملاءة السرير على أبيه
وينطى بها وجهه .

قال :

— لم ابلغه ان امى فى شدة المرض وتطلب لقائه
الآن ولكنه سبقها .

— اذهب الآن اليها وقل لها : انه سيأتىك فى الصباح .
واياك ان تخبرها بموته حرصا على صحتها

— لو قلت لها لقد توفى الى رحمة الله ، ارحم بها من
قولى سيأتىك فى الصباح .

أثبت الطبيب الشرعى من الفحص الدقيق للجرح .
وطريقة نفاذ الرصاصة والتحقيق وشهادة نجيب ، انه
بالفعل فى حالة نزوله متعجلا من السرير ويده المسدس
تعثروا عليه فكانت نهايته .

انتهى كل شىء وخمدت النيران المشتعلة لتتركنى
رمادا بلا حول ولا قوة .. واذا التركة ينتهى حصرها .
ليكون نصيبى العمارة التى أسكنها ، وهذا أكثر من نصيبى
حسب قول نجيب .

شملتنى تعاسة بالغة لانى كنت أتوقع أكثر من هذا
بكثير .. كنت أفكر فى مشروع صغير يشرف عليه جابر
شخصيا ، يعود علينا بالربح الوفير ، أما هذه العمارة
المكونة من ثمانى شقق أسكن احداها لا تدر غير أربعين
جنيها فى الشهر .

وهكذا سقط على الارض فكرى السايح فى الفضاء .

~~منعنى~~ منعنى صدقى مع نفسى من محاولة الطعن فى
توزيع التركة ، على أساس أنى حامل من الحاج شهدى،
كما أن الظروف التى تواترت بعد ذلك لم تسمح لى
بالسعى جديا فى هذا السبيل .

ما أن افقت من دفن زوجي وانتهاء التحقيق تهما حتى
 داهمتني وداهمتنا جميعا مشكلة المشاكل . . مشكلة لا أول
 لها ولا آخر ، منعنا من الطعام وحرمتنا من النوم ، وحالت
 بيني وبين التفكير في عيون جابر ويدي جابر وشعر ذقن جابر

كنت أرتعد من سماع طلقات الرصاص ، فاذا بيوم
 الاثنين ٥ يونية ١٩٦٧ يظهر فجأة في حياتي ، وأنا غير متابعة
 للاحداث ومشاكل السياسة والحوار الساخن بين الحكام .
 فاذا يونيو اللعين يلقي علينا أطنان القنابل فلا تسقط على
 البيوت بقدر ما تسقط في القلوب ، ولا تهدم المصانع وتحرق
 الزرع بقدر ما تهدم الكرامة وتحرق الاكباد .

اشتعلت الحرب ونحن في السويس نقيم على الشاطئ
 القريب للمعركة ، أول أرض لها بعد سيناء ، اذا وصل العدو
 عندنا فقد دخل مصر كلها ، والاسوأ من هذا كله أنني عانيت
 أثناء هذه الفترة من وحدة غريبة ، فأنى لا تبرح دارها
 وجابر لم يظهر والناس ساهمون كأن الحسب امتصت
 عقولهم ، يعيشون على آذانهم ، وآذانهم ملتصقة

بالاذاعات ، مشرعة الى الفضاء ، تتلقى من هنا وتتلقى من
هناك أنباء مختلطة .

فإذا أسقطت طائرة معادية انفجروا بصيحات الفرح ،
وإذا أصيبت لنا سيارة أو طائرة انكبوا صامتين ، كما
نشاهد الجماهير في مباريات الكرة .. ذهبت الى امي نتبادل
الوحدة والوحشة والنظرات الزائفة عدة أيام .. لم نستمع
خلالها الا الى كلمات محدودة .. خسائر ، انسحاب
خسائر ، انسحاب .

الناس تضرب كفا بكف .. غير معقول .. غير
معقول .

انتهت الحرب يوم الخميس أو الجمعة على الأكثر ،
فإذا الناس يقولون أن الاسرائيليين أصبحوا أمانا على
الشاطئ الآخر ، بيننا وبينهم مالا يزيد عن مائة متر من
المياه ، وقال البعض أنهم اذا كانوا قد وصلوا الى هذه
النقطة من أرضنا فلن يبرحوها أبدا ، أولا ... لان اليهود
كعنصر يعبد الامتلاك ، سوف يدفعون بكل قوتهم وعتادهم
ومالهم ودهائهم في سبيل الاحتفاظ بهذا الموقع الهام
وثانيا لان هذا المكان يصعب زحزحتهم منه الا بعمل خرافي .

فما العمل اذن ؟ .. العمل عمل الله ~~الجليل~~ القاهر ..

العمل أصبح علينا اضعاف ما كان قبل ذلك وكنا لا نكاد
نحمل اعباءه .

سكون . سكون ، كان الحرب قنبلة وانفجرت ،
وانطرح الناس جميعا على الارض ، يتقون شظاياها
ولظاها ، واضعين ايديهم على آذانهم ، وجوههم الى
الارض وعيونهم مغمضة ، ولكن العقول والقلوب تبحث
عن الله في كل مكان .. الله .. الله .. أين الله .. أينما
كنت يارب فخذ بيدنا ، ويسال الله من أعلى سماء ومن
أعماق الارض ... أين هي ايديكم التي سآخذ بها ، لكنهم
لا يسمعون ، يعودون الى الدعاء يارب .. يارب .

أخيرا ظهر جابر ، فهمت منه أنه حاول التطوع في
الجيش منذ أول يوم ، لكنهم رفضوا فدخل مع أصدقائه
سيناء خفية والتقى ببعض عرب سيناء ، فبقى معهم يراقبون
الجنود وظروف الحرب عن كثب ، ويحاولون المساعدة
بالاسعافات ونقل الطعام والماء ودفع السيارات التي
تتعطل ، أو حفر الخنادق للذين يحاولون الاختباء من هجوم
الطائرات التي تمسح الصحراء وتعيد تسويتها بقنابل
النابالم .

بقى جابر عزدى أكثر من شهر يشاركني طعامي
ونومي ، لكنه في نصف حجمه وفي نصف فكره ، مشغولا .

مهموما كمن ينتظر كربا عظيما ، شاردا كمن يبحث عن
القيء .

وقد لجأ الى لان البوليس كان يبحث عنه ، ليؤدى
الخدمة العسكرية المقررة عليه فقد قامت الحكومة بجمع كل
الشباب ، حتى الذين سبق تأديتهم للخدمة او الذين سبق
اعفاؤهم لاي سبب مثل جابر ، غاضطر للهرب عنــــدى
وسألته فلم يجيبني عن سبب رفضه للتجنيد ، لكنه بعد أيام
وحين ألححت عليه قال :

— أنا لا أخدم في جيش بلا قيادة ، هل أركب سيارة
بلا سائق .

ان العمل بالجيش من اسمى الاعمال ، وأشرف مجالات
النضال والتضحية دفاعا عن النفس والاهل والوطن ، لكنه
بهذا الشكل تحول الى مهزلة يجب أن يعدم كل المسؤولين
عنها . . لطالما تسامح شعبنا مع الإثمة ، وهذا التسامح
سيؤدي حتما به وبآماله .

جاعنى يوما يطلب فورا مائتى جنيه ، فلم أسأله
وانما بعث عقدين وسوارا من الذهب وقدمت له النقود . .
تبلنى قبلة طويلة وعانقتنى دون أن ينبس بكلمة ، ففهمت
أنه يعبر عن امتنانه . . لكنه ذهب ولم أره بعد ذلك مرة
أخرى ، وعرفت أنه سافر بالبحر خارج مصر .

سألت نفسي مئات المرات .. ما العمل ؟ .. وجنيته
في بطني وحبه في قلبي وأنا وحيدة ، ألم يفكر في هذا كله ؟ ..
أله يعلم بأنى كنت أنوى بيع البيت وتسليمه الثمن كله لنبدأ
معا مشروعا كبيرا يحقق لنا حياة كريمة .. ألم يعلم بأنى
كزت على استعداد كى أقدم له روحى ، وعمرى كله حتى
يبقى .. فقط يبقى الى جوارى ، بعد أن ذهب الجميع ..
لقد كان يعلم بكل ذلك ، لكنه فر كالمطائر الذى هجر عشه ،
.. ولا أدرى ما سبب هجرته ، وهجره لى .

الجنين يكبر ويظهر ، وتتجلى على أعراض لم يعلم
بها أحد الا الخياطة ، كان لا بد أن تعلم كى تسامعنى
في الحُر ، وفيما يعترينى أحيانا من التعب والدوار والهبوط
والقيء .. لكن الله وهو صاحب الامر بعث بالحل في شهر
سبتمبر من عام ١٩٦٧ فقد أمرت الحكومة بتهجير كل اهالى
المدينة .

رأيت الله لأول مرة يتجلى لى بهيا رائعا .. رأيت
يقول لى في عبارات جليلة فتدوى في الارض والسماء ولا
يسمعه الا قلبي .. لقد قررت أن أحبك لأنك طيبة القلب
طاهرة الروح .. أحبك من مجتمعك بعد أن أخطأت في
حقه ، وفي حق نفسك فاذهبى .. ترعاك عنايتى .

* * *

لتركنا كل شيء للدمار ينصب عليه من شرق
القناة ، وتبعثرنا في كل بلاد مصر ، رفض أبى وأمى ترك
السويس أما أنا فرحلت الى أخى منصور فى شبرا ووضعتم
عنده ولدا ، سميتة جابر ..

ثابرت أم جابر التى كانت تسكن السيدة زينب على
زيارتى يوما كاملا كل أسبوع للعب مع جابر .. وعلم أخى
منصور بأن الولد ليس لشهدى وإنما لجابر فغضب فى
البداية وأعرض عنى عدة أيام ، لكن لأنه كان الرفض الوحيد
لزواجى بشهدى ، سرعان ما هدأ خاطره ، ولان جانبته
وعاد معى سيرته الاولى حنونا كريما .

فى احدى زيارات أم جابر لى قالت : هل حقا تحبين
جابر ؟ فعجبت اذ تسألنى هذا السؤال سيده محنكة كأم
جابر ، فقلت لها : وهل تقدم امرأة كل ما تملك لرجل غير
زوجها ، الا اذا كان بالنسبة لها الدنيا كلها والحياة الكاملة .

قالت وكأنها كانت تمهد بسؤالها فقط لما بعده
— اذن لماذا لا تبحثين عنه ؟

— أنت أعلم بمكانه منى ، وتعلمين اننى قلبت
السويس بحثا عنه ومستعدة للبحث عنه فى كل مكان ولكن
أين ؟ .. مصدرنا الوحيد هو صديقه فتحى فودة وقد سألتها،
ففهمت منه أنه هرب على باخرة يونانية من الاسكندرية .

الى أين ؟

لا أدري ..

تقالت في اهتمام خفى : والعمل ؟

قلت : ليس لنا الا الانتظار .. لو عثرت على أى
مفتاح للبحث عنه أو دليل يرشدنى لبحرت وراءه .. ليس
عندى أغلى من جابر .. هو الوحيد الذى أعادنى للحياة
والذى يجب أن يعود ، ليعيد الى الحياة .
وما على الا الانتظار ... الانتظار الى أن يظهر
جابر .

قالت أمه : ليتته يظهر .. اننى مؤمنة تماما أنه حتما
سيعود .

قلت : نعم .. ولكن هل لنا من سبيل اليه ؟. أن
ظهوره الان غيب كامن في بطن الايام .

قالت أم جابر : لا اظننى سأبتسم مرة أخرى قبل أن
يعود جابر ، أنت لا تعلمين من هو بالنسبة لى .

قلت : بل أعلم ، ولكن ليس لنا الان الا الله .. ونحن
في حاجة الى أن نفكر في الله ، فبيده ملكوت السموات
والارض .

يوسف يعود جابر الينا .. سيعود ان شاء الله .

بنها في يونيو ١٩٦٨

صدر للمؤلف

- * عقدة النساء — مجموعة قصص ١٩٧٨ (نفذت)
- * كلام الليل — مجموعة قصص ١٩٧٩

تحت الطبع

- * الناب الازرق — رواية
- * السقف — مجموعة قصص

عنبرانه

- ٣٩٩ ش رمسيس — جولى ارت

الناشر
الشركة العربية للنشر

يطلب من
مكتبة مدبولي — ميدان طلعت حرب